حول إمكانيّة مقاربة إبستمولوجية للسيمياء

أ.د. عيد الرزاق بنور
جامعة تونس

«هي ذي السيمياء التّي تضرب جذورها في الإبستيمولوجيا، وفلسفة العلوم والمنطق الصوري وفي علم النفس، -بالنسبة إلى فاردينان دي سوسير- تزيد اليوم قيمتها شيئا فشيئا في نظر العلوم والتكنولوجيا» مدخل في دراسة السيميولوجيا.

0.0. **تمهيد**: لا تتمثّل إبستمولوجيا علم من العلوم في ترسيس -أي إعادة بناء- تاريخه أو رسم ملامح تأسيسه، حتّى وإن كان ذلك مهمّا من بعض النواحي لفهم تطور الجهاز المفهومي وتوسّع حدود النّظام. فلا تهمّنا حياة المنظرين بقدر ما تهمّنا الآليات والإيديولوجيات التّي حكمت وتحكم مقومات النّظريّةِ. لذلك سنحاول التركيز على أبعادها، بالتحديد والتوسُّع، بالتفسير والتصنيف والمقارنة والمساءلة، مرّة في اتجاه التعميم ومرّة في اتجاه التخصيص فنستخرج ثوابتها ونستدعي متغيّراتها نستشف تقييداتها ونستقرئ أحكامها العامّة وقوانينها الإجرائيّة والنّظريّة. لهذا الغرض سنفكّر بالنّظريّة وضدّها، كما يقول الأستاذ أحمد يوسف في مشروع بحثه السيميائي، من أجل مساءلة النّظريّة باعتبارها لغة واصفة وموصوفة في ذات الوقت. فمن لم يتيقن أنّ السيمياء تختصّ بالإزدواجيّة حيث هي الموضوع والمقاربة وهي الواصفة والموصوفة وهي النظريّة والإجراء، فيها تتماهى العلامة وعلامة العلامة أي الخطاب وخطاب الخطاب. لذلك لا يمكن مقاربتها دون الوعي بهذا الانفصام الذي يجعلنا نفكّر ضدّها كلّما سعينا إلى التفكير بها. وهي إجراء انعكاسي في تصنيفها للعلامات الذي يسوّغ لها تصنيف الخطابات، لذلك لا عجب في أنّ موضوعها يتعدّى حدود الخطابات وتنوّعها.

وكي لا نصادر على المطلوب، يكون أوّل سؤال يجب علينا طرحه ههنا كالتّالي : هل إنّ السّيمياء «**علم**» يستوجب دراسة إبستمولوجيةً ؟ هل إنّ ما يسمّى «علم دراسة العلامات» في أوّل وأبسط تعريف له، أو بتعريفه اللاحق «علم أنظمة العلامات» (بنفنيست)، أو «دراسة أنظمة الدلالة» التي تقدّم نفسها على أنّها تنظر في تكوّن المعنى مولّدة بذلك نوعا من الإزدواجيّة التّي تحيل بها إحدى إثنتين -السيمياء أو علم الدلالة-[1] على المعاش أو على الأشعبيّة النّظريّة، وبها يُفلق البحث في المعنى اصطناعيّا بين ما ينتمي إلى الدلالة وما ينتمي إلى السيمياء؛ مثلما فعل غريماس ومثلما فعل بنفنيست؟ هل إنّ السّيمياء بالفعل علم من قبيل «علم الفلك» و«الفيزياء» و«الرياضيّات» و«علم الاجتماع» و«الجبر» و«علم النفس»؟ وإن كان كذلك فهل ينتمي إلى العلوم الصحيحة أم إلى العلوم الإنسانيّة أم الاجتماعيّة؟

ليس الجواب عن هذا السؤال من البداهة المتوقعة، فالأمر محلّ خلاف بين المنظِّرين: بين من يتساءل وبين من يعتقد أنّ السيمياء «**علم العلوم**» -فهل تظلّ علما أو ترجأ إلى ماوراء العلم؟- وبين من يرى أنّها ليست كذلك بدليل ألاّ موضوع لها وألاّ وجود لدرس أكاديمي يعترف بها ويصنّفها ضمن العلوم سواء كانت علوما صحيحة أو علوما إنسانيّة أو اجتماعيّة. بل ثمّة من الباحثين (فرانسوا راستيي، مثلا) من يعتقد أنّها مجرّد مجال رافد لدراسة العلوم،[2] وسيلة كانت أو سياقا أو مقاربة ممكنة.

1 نشير للتذكير أنّ المادّة اليونانيّة التّي اشتق منها اسم العِلمين «semantics» و«semiotics» هي نفسها «σεμειον».

2 انظر فرانسوا راستيي (2001): «...التأمّل في السيمياء باعتبارها مجالا علميّا، وليس في السيمياء باعتبارها علما. فكليّة

I. مهمّة الابستمولوجيا؟

«كلّ ما لا يخضع لمبدإ التناقض يعدّ بالأساس مبهما.» بورس، «*Écrits sur le signe*»،[3] ص 51.

كي نتبيّن إن كانت السيمياء «علما» يستحق دراسة إبستمولوجيّة، يجب أن ننظر، كما هو مطلوب في كلّ دراسة إبستمولوجيّة، في المسائل التالية:

أ. **ضبط تسميتها**، وهو أوّل ضامن لكيانها باعتبارها حقلا معرفيّا له وجود مستقل بذاته، غير مندرج في علم آخر، ولا يمثّل جزءا من حقل معرفي أوسع ولا هو متّكل على علم من العلوم يأخذ منه مقوّماته ومفاهيمه التّي يمكن أن تغيّر رسم ملامحه حسب متطلبات العلم المرتكز عليه وليس حسب مقتضياته هو.

ب. **تحديد أبعادها** بتحديد مكوّناتها الأساسيّة، وضبط مصطلحاتها، ومجال بحثها، وميدانها، وحدودها، وتصنيفاتها الداخليّة والخارجيّة ثمّ طرُق التمييز بين النّظري والتطبيقي.

ينبغي أن ننظر ههنا في مكوّنات السّيمياء الأساسيّة، مقابل مكوّناتها العرضيّة. وسنحاول التعرّف على المصطلحات الخاصّة بها والتّي لا يقوم علم بدونها، إذ لا يكون العلم علما إلاّ إذا كانت له مصطلحاته الخاصة به، وهو شرط «خصوصيّة المصطلحات». وسنحاول كذلك ابراز المفاهيم المتفق عليها والمستقرّة الثابتة وتلك التّي تكون محل خلاف، وسنسعى لتبيين أسباب ذلك.

ثمّ نتطرّق لتمييز النّظري البحت عن التطبيقي، إن وجد، وتخليص السيمياء (بافتراض أنّها علم مستقل له حدود واضحة) من الشوائب المتعلقة بها والمرتبطة بعلوم أخرى تتطفل عليها أو تسندها. ذلك أن التعدد من قدَر السيمياء، فبسبب وجودها في موقع التقاطع بين اللغة والأنظمة التواصليّة والفكريّة والإيديولوجيّة وحتّى البيئيّة، الخ فإنّها تقع في ضبابيّة المشترك من المقاربات وكأنّها نظريات مختلفة تزعم كل منها بناء نموذج كامل متكامل لعلم العلامات، بينما لا تعدو أن تكون وجها من الوجوه يتجاهل تعقيد البناء بفرض الجزء على الكل. ويستحق كناية «الفيل السيميائي» تلميحا إلى مغزى فيل المهراجا مع العُميان الذين لا يدرك كلّ واحد منهم سوى الجزء الذي يلمسه فيطلق عليه اسم الكلّ.

ج. **تحديد أهدافها**. وهذا سيدفع بالطبع إلى تجاوز الظاهر المعلن من أسباب البحث في السيمياء وإعلان النّوايا، وكذلك تجاوز محتوى التعريفات للنّظر في النتائج المحرزة.

د. **الغوص إلى أعماقها لتحديد المبادئ العامّة** التّي تكوّن مجمل مقوماتها النّظريّة.

هـ. **تقديم السيمياء البديل**، وإشكاليّة توطين المعنى.

و. **استخلاص الخاصيّات المشتركة بين البحوث السيميائيّة**، وسنرى أنّها تتسم بالتراجعيّة العامّة رغم

حضور العلامات وكونيتها تجعل من المستحيل بالفعل التأسيس لسيمياء تكون تخصصا مستقلاّ بذاته. ولِمَ لا تكون سيمياء الثقافات خاصّة علمَ العلوم؟»

«…réflexion sur la sémiotique en tant que domaine scientifique, plutôt que sur la sémiotique en tant que science. En effet, l'omniprésence des signes rend pour ainsi dire impossible la constitution de la sémiotique comme discipline. Une sémiotique des cultures, notamment, ne serait-elle pas une science des sciences ?».

3 انظر بورس في نصّه:

«For that which is not subject to the principle of contradiction is essentially vague». *The Essential Peirce: Selected Philosophical Writings*, Vol. 2 (Excerpts from Letters to Lady Welby), p. 479.

الدعوة الصّريحة للتوافق وتجاوز الفكر الاستدراكي.

تمثّل كلّ نقطة من النقاط (من «أ» إلى «و») المخطط الذي سنتتبَّعُه للإجابة عن السؤال الرئيس المتعلق بإمكانيّة مقاربة إبستمولوجيّة للسيمياء. وسنتَّبع تراتب مهمّات الإبستيمولوجيا حسب تقديمنا لها، فنبدأ بما كان يفترض أن نبدأ به قبل عنوان المداخلة أصلا ونعني به تسمية ما يتعارف عليه بالسيمياء.

II.أ. **إشكاليّة التسميات :**

لكلّ نظريّة أو مقاربة اسم. ودون الحديث عن الومضات المبثوثة منذ أفلاطون وأرسطو، أو أوّل مستعملي مصطلح «سيميوتيقا» في المعاصر، أقصد به جون لوك في القرن السابع عشر ميلادي (1690)، أو النّظريّة الجنينيّة لـ«بنيامين سمارت»(Benjamin Smart, 1831) التّي أطلق عليها صاحبها اسم «**سيماتولوجيا**»(sématologie)، أو كتابات فيكتوريا ويلبي (Victoria Welby,1837-1912) في علم المعاني الذي سمّته «**المعانويّة**» (Significs)(1896)، بل في ظهورها المزدوج شبه المتزامن.[4] كان أول ظهور للمصطلح عند دي سوسير -ويبدو أنّه أخذها من إميل ليتري (Émile Littré) الذي استعملها مصطلحا طبّيا، يُعنى بعوارض الأمراض سنة 1855.[5] ويبدو حسب بعض الدارسين أنّ بورس استعمل المصطلح أوّل مرّة سنة 1897، -في حين تعود كتاباته في العلامة إلى قبل ذلك، (فهو يتحدث عن تصنيفه الثلاثي للعلامة إلى إيقونة ورمز وقرينة، منذ 1867).[6] لكنّ الأمر غير ثابت، وربّما كان ذلك قبل هذا التاريخ، أي حين كان عمره بين 38 و58 سنة. اتخذت السيمياء اسمين «semiotics» [سيميوطيقا] مقابل «sémiologie» [سيميولوجيا]، وبالتالي اتجاهين: أحدهما لساني مع دي سوسير والثاني فلسفي منطقي مع شارل بورس. ولم تستطع السيمياء تجاوز هذا الانفصام إلى يومنا هذا، رغم محاولة بعض الباحثين التقريب بينهما، على غرار ما فعله إمبرتو إيكو. في حين أنّهما كما يراهما بنفنيست في موقع تقابل تامّ من الناحية المنهجيّة وكذلك من الناحية التطبيقيّة.[7] فكيف يرتَق الخرق بين هيالمسلاف وريث دي سوسير، مثلا، وبورس، وتردَم الهوّة التّي تفصلهما وتسبّب سوء الفهم المزدوج المعيق للتواصل.

ومن الطريف أنّ الفعل قديم قدم تعامل الإنسان مع العلامات، سواء في تقفي آثار الحيوانات[8] التّي يصطادها أو في محاولاته الأولى تمثيل ما يخافه وما يقدسه من محيطه. لذلك نرى السيمياء تشبه إلى حدّ بعيد غاز الأكسيجين الذي لا يمكن للإنسان أن يعيش دونه ولكنّ البشريّة انتظرت «لافوازييه» كي تكتشف وجوده في الكون ودوره في الحياة. ولا بدّ ههنا من لفت النّظر إلى أنّ أوّل تفكير انعكاسي شبه منظّم، يمكن أن نؤرّخ له، حصل عند اختراع الكتابة وتمثيلها للأصوات والانتقال من الصورة إلى الايديوغرافيا (= الإيقونة).

4 يقول بنفنيست إنّ السيمياء باعتبارها علم العلامات ظهرت عند بورس ودي سوسير تقريبا في الوقت ذاته ودون تنسيق أو اتصال بين الرّجلين.

5 يؤرخ بمخطوط يعود إلى سنة 1894، وكان عمره 37 سنة.

6 انظر رسالته إلى فيكتوريا ويلبي، ص 32، من «*Écrits sur le signe*»، يقول «وهو تقسيم اقترحته سنة 1867».

7 بنفنيست، نفسه 45.

8 حول أصل الكتابة والإيديوغرافيا، انظر عبد الرزاق بنّور، «**الكتابة في المتوسط**». دار زرياب للنشر. الجزائر. 2004.

وضعَ دي سوسير ما نقله عنه تلاميذه باعتباره «علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعيّة»[9] ووسمه بالسيميولوجيا (sémiologie) وربطه بعلم النفس الاجتماعي وجعله من علم النفس العام. أمّا اللسانيات التّي جعلها جزءا من هذا العلم الجديد فقد أضفى عليها صفة العلم لمجرد أنّها تنتمي إلى السيميائيات.[10] ومع ذلك يعتبر دي سوسير أنّ العلامة مفهوم لساني يمكن أن يسع ميادين أخرى.[11] فهي المؤول لكل الأنظمة السيميائيّة الأخرى. وبعد وقت قصير، وربّما في الوقت ذاته وبالتزامن، وضع بورس ما أسماها «السيميوطيقا» (Semiotics) وجعلها مرادفة للمنطق، إذ يقول إنّه يرى فيها «علم جبر العلاقات الكوني الذي وضعـ[ـتُـ]ـه»[12] وأنّ المنطق ليس إلاّ صورة أخرى للسيموطيقا.[13] ويقول في موضع آخر إنّ اللسانيات يمكن أن تصبح النموذج العام لكل السيميائيات، رغم أنّها ليست سوى نظام خاصّ،[14] لأنّ العلامات لا يمكن أن توجد وتربط علاقاتها ضمن نظام دون افتراض وجود اللغة التّي تنتجها وتؤولها.[15]

هكذا إذًا اصطبغ كلّ اتجاه بالمحيط الذي نشأ فيه والآليات التّي ارتبطت به. فكانت «سيميولوجيا» دي سوسير ذات منحى لساني، مرتبطة ارتباطا بالبنيويّة، تجعل من نظام العلامات اللغويّة منوالا عاما لاشتغال العلامات الأخرى. كان هذا هو التوجّهُ العامّ، دون اعتبار المتمرّدين من أمثال أحد أبرز أتباع هذا التوجه، أعني به رولان بارط، الذي رأى العلاقة معكوسة فوضع السيمياء ضمن اللغة وجعل معرفة الكل غير ضروريّة للتعرّف على الجزء... أمّا في تعريف العلامة بأنّها لا تكون كذلك إلاّ في نطاق نظام علامات، أي أنّها لا توجد مفردة، بل مركّبة (وأحيانا خافية، مثل تلك التّي حاول بارط إظهارها في دراساته للموضة والإشهار، الخ) فيستوجب استخراجُها معرفةً مسبقة بعلاقات النّظام وتركيباته، مما يعني أنّ عزل العلامة لا يكون إلاّ من خلال إجراء بتّ منهجي. وهذا يشرّع طرح سؤال إنكاري، من قبيل الآتي: «ألا تكون العلامة من صنع النّظريّة»؟ وبخاصّة إذا كانت بعض النّظريات ترى علامات لا تراها غيرها. فإذا كانت العلامة ناتجة عن إجراء تأويلي (بارط نموذجا) فهذا يعنى أنّ النظريّة هي التّي تصنع العلامة وليست العلامة هي التّي تفرض التوجه النّظري. فما الذي يبقى من اعتبار العلامة دالّةً، فارقةً، منتجةً، وهي السّمات التي أقنعونا بها منذ البدء، في حين لا نقرأ عند أحد عن علامة لها هذه الخاصيّات؟ ثمّ إنّ من بين الأنظمة السيميائيّة المدروسة أنظمةٌ لا وحدةَ دنيا لها ويصعب أن نقول بالتحديد ما الذي يمكن أن يعتبر فيها علامة وما لا يمكن اعتباره كذلك. بل يؤكّد رولان بارط أنّ تقسيم النصّ باعتباره كلاّ دالاّ إلى أجزاء ذريّة ثمّ جمعُها في مركبات استبداليّة ثمّ في أنساق، الخ،

9 دي سوسير، «دروس»، ص33.

10 دي سوسير، نفسه، ص34.

11 انظر رأي بنفنيست في القضيّة (بنفتيست، نفسه، ص 46).

12 ما أوحى لبول مارتي (Paul Marty) بعنوان كتابه «علم جبر العلامات» (*Algèbre des signes*) وهو كتاب يضع فيه مارتي أسس السيمياء العلميّة «الجبريّة» وشبكة أقسام العلامات.

13 منقولا عن بنفنيست (نفسه ، ص 120):
«La logique, dans son sens général, comme je crois l'avoir montré, n'est qu'un autre nom de la sémiotique (σημειωτικη) la doctrine quasi nécessaire ou formelle des signes».

14 ينفنيست، نفسه ص 101.

15 انظر مثلا ستيفانو تراييني: Traini (Stefano), *Le due vie della semiotica Teorie strutturali e interpretative*.

يضرّ بالدلالة العامّة أكثر مما ينفعها.[16] إنّها في الواقع جدليّة كلاسيكيّة بين الكل والجزء. ثمّ إنّ فرعا من «سيميوطيقا» بورس -التي تنقسم إلى ثلاثة فروع، كما يتجلّى ذلك في مخطوط مؤرخ بسنة 1897: النحو الخالص، والمنطق الحقيقي، والبلاغة الخالصة- يهتمّ بتحديد العلاقة بين العلامات باعتبارها رموزا بمؤوّلاتها يسمه بورس بالـ«البلاغة الكونيّة» (Universal Rhetoric).[17] هذا الفرع بالذات وهذه البلاغة الكونيّة البورسيّة هي التي أوحت لألفرد كهشبسكي (A.Korzybski) بوسْم نظريته السيميائيّة الجديدة بـ«**علم الدلالة العام**» (General Semantics).

وإذا كان تغيير الأسماء للمسميات نفسها دليل على شعور بعدم الرضا، فإنّ التقابل بين «سيميولوجيا» و«سيميوطيقا» الذي اتسمت به الدراسات السيميائيّة منذ ظهورها قد أخذ بعدا نظاميّا دالا في التقاليد العلميّة الغربيّة عامّة والأمريكيّة خاصّة، حيث يميَّز بين «-**طيقا**» (-etics) و«-**لوجيا**» (-logy) على أساس أنّ «-**طيقا**» تشير إلى ما يتعلّق بوصف المادّة والمكونات، مقابل إشارة «-**لوجيا**» إلى ما هو نظامي ووظيفي ودال. نرى ذلك بين «فونيطيقا» (phonetics) و«فونولوجيا» (phonology)، مثلا، حيث تصف الأولى المادّة الصوتيّة وطرق تكوينها، بينما تتعلق الثانية بدلالة المقابلات الصوتيّة ووظيفتها في اللغة باعتماد التجاور والتنافر، الخ. وقد أقيمت على هذا الأساس جل الأزواج التقابليّة بين المقاربات تمييزا بين الوصفي التوزيعي والوظيفي الدّالّ. وتوسّع التمييز باعتماد اللاحقتين ليشمل علوما عدّة مثل «الغرافيطيقا» (graphetics) مقابل «الغرافلوجيا» (graphology)، في علم الكتابة؛ و«الترانسلطيقا» (transletics) مقابل «الترانسلتولوجيا» (translatology)، و«التراديكتيكا» (traductique) مقابل «الترادكتولوجيا» (traductologie)، في علم الترجمة؛ ثمّ «الترمينوطيقا» (terminotique) مقابل «الترمينولوجيا» (terminologie) في علم المصطلح، الخ.

وأصبحت المقابلة بين اللاحقتين «-**لوجيا**» # «-**طيقا**» [(-logy) ≠ (-etics)] كافية وحدها لتحديد ماهيّة المقاربة، أهدافَها وأبعادَها النّظرية، إن كانت وصفيّة ماديّة أو وظيفيّة تفاضليّة، تبيّن وظيفة كلّ عنصر داخل نظام تقابلي أو تماثلي أو ثنائي موسوم. وعلى هذا الأساس، يمكن أن نتمثّل رباعيّة هيالمسلاف القائمة على التمييز بين المادّة (substance) والشكل (forme)[18] في اهتمام «اللكسيطيقا» (lexétique)، و«المورفطيقا» (morphétique)، و«الغرافيطيقا» (graphétique)، إلى جانب «الفونيطيقا» (phonétique) بمستوى المادّة وتكوينها. في حين تقابلها المصطلحات نفسها مع اللاحقة «-لوجيا» (-logy) أو بدلها أي «-ميقا»(-emics) في مستوى الشكل ووظيفته.

فلماذا لا نتخلّى عن المقابلة بين «سيميوطيقا» و«سيميولوجيا» وهي مقابلة تربط السيمياء بأصولها التاريخيّة -بورس مقابل دي سوسير- والنّظريّة -المنطق مقابل اللسانيّات-، الخ، لنؤكّد خصوصيّات

16 عن شاندلار، ص 87.

17 يقول : «وكنت اقترحت لها سنة 1867 اسم «البلاغة الكونيّة»...» ص 50، من «*Écrits sur le signe*». لكنّ دراسة متأنّية تظهر أنّه كان اقترح لهذه البلاغة الكونيّة أسماء متعدّدة منها ما ذكرها ليتزكا (Liszka) في كتابه (*A General Introduction to the Semiotic of Charles Sanders Peirce*) من قبيل «البلاغة التأمّليّة» (speculative rhetoric) و«البلاغة الصوريّة» (formal rhetoric) و«المنطق الموضوعي» (objective logic) و«ميثودويطيقا» (methodeutic)، ص78. ويضيف إليها «البلاغة الخالصة». (*Écrits sur le signe*، ص 122)

18 انظر مثلا «كلود غريواز» ص 39 (Claude Gruaz, *Aspects du mot français*, 2005).

المقاربات السيميائيّة المتضاربة التّي تنتفي معها في النهاية كلّ خصوصيّة للسيمياء؟ لماذا لا نعتمد المقابلة بين «*etics*-» و«*emics*-» التّي أسس لها «كنّث بايك» (K.Pike) وتبنّاها علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) وهي ذاتها التّي نجدها بين «*etics*-» و«*logy*-»، حيث تشير الأولى إلى الجانب المادّي في النّظريّة (لنقل في ما يتعلّق بالسيمياء أنّ «السيميوطيقا» تهتم بطبيعة العلامات، مرئيّة، أو مسموعة أو ملموسة، مثلا) وتشير الثانية إلى الجانب الوظيفي من النّظريّة (حيث يفترض أن تهتم السيميولوجيا بالعلاقات بين العلامات من تقابل وتماثل وتوازٍ) تماما كما يحدث في التقابل بين «الفونيطيقا» و«الفونولوجيا»، الخ؟ فلنتصوّر لحظة أنّ «الفونيطيقا» و«الفونولوجيا» عرفتا إزدواجيّة المولد كما هو الحال بالنسبة إلى السيميولوجيا والسيميوطيقا! ماذا كان يمكن أن يكون الحال بالنسبة إلى الدراسات الصوتيّة؟ ألا تراها ستعرف حتما التذبذب الذي تعرفه السيمياء اليـوم!؟

لقد فكّر بارط في تخصيص «سيميولوجيا» للعلم العام وتخصيص «سيميوطيقا» للمقاربات الخاصّة. بينما نجد استعمالا لافتا عند بنفنيست منذ 1969 مبثوثا في مقاله «سيميولوجيا اللغة»،[19] دونما تعليق، يميّز فيه بوضوح بين السيميوطيقا باعتبارها وصفا للمادّة التّي تكوّن النّظام والسيميولوجيا باعتبارها التفكير في كيفيّة اشتغال النظام وتكوين المعنى.

إلاّ أنّ هذا الفصل بين المادي والوظيفي في السيمياء لن يغنينا عن التوفيق، كما فعل إمبارتو إيكو، بين المذهبين من النّاحية الإجرائيّة. هذا هو السبيل الأمثل، حسب رأينا المتواضع، لإقامة «سيمياء عامّة» تقوم على شقّين؛ شق للمكونات يصف العلامات بمختلف أنواعها والشقّ الآخر لدلالة التقابل بين الفوارق الدنيا ووظيفتها داخل نظام العلامات، لأنّ اللاحقة «*logy*-» تقوم على مبدأ التمايز. وسيمكّننا هذا أيضا من تجاوز الانقسام التاريخي بين نظريّتي دي سوسير وبورس، بل سيسمح بدراسة ما ينتمي إلى «السيميوطيقا»، أي الوصفي المادّي، وما ينتمي إلى «السيميولوجيا»، أي النّظامي الوظيفي، في كلا المقاربتين. من منظورنا إذًا، تنقسم السيمياء باعتبارها المجال الجامع إلى قسمين، السيميوطيقا والسيميولوجيا، ولكن ليس على أساس دي سوسير مقابل بورس، بل سيمياء بورس ودي سوسير مجتمعتين :

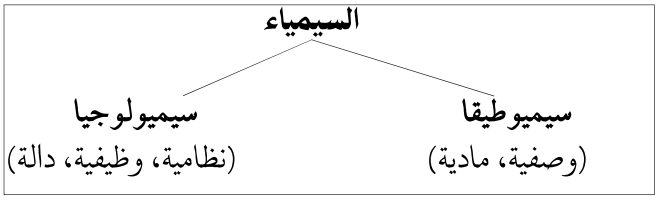

هذا التمييز القائم على طبيعة الإجراءات والمقاربات دون الاعتبارات التاريخيّة لا يعتمد على ما جاء عند هيالمسلاف[20] الذي يعتبر أنّ السيميولوجيا ليست سوى ميتا-سيميوطيقا، أي سيميوطيقا واصفة!!!... مع أنّه أوّل من ميّز بين السيميولوجيا والسيميوطيقا من منطلقات غير تاريخيّة كما لا يزال يفعل جلّ الدارسين.

وما سبق كفيل أيضا بفصل الجانب **النّظري** من دراسة العلامات عن الفعل **التطبيقي**. وهو ما لم يحصل إلى يومنا هذا، فبالرغم من أنّ محاولات جزئيّة لوضع «سيمياء عامّة» قد تمت في العقود الأخيرة، ابتدأت مع مقال بنفنيست «سيميولوجيا اللغة» 1969، وكتاب إمبرتو إيكو 1976 «**نظريّة السيميوطيقا**»،[21] إلاّ أنّنا لم

19 انظر بنفنيست: «Sémiologie de la langue», in *Problèmes de linguistique générale*, pp.43-66.

20 انظر هيالمسلاف «*Prolégomènes*»، صص 144-157.

21 نشره إمبرتو إيكو بالأنغليزيّة (*A Theory of Semiotics*, Indiana University Press, 1976) ثمّ ترجم إلى الإيطاليّة «**رسالة في**

نعثر على دراسة واحدة، حسب علمنا، تضع القوانين العامّة ثمّ تدرس تقييدات المواقف الخاصّة. بل عادة ما يُنطلق من وصف «الحاصل» واستخلاص دلالة العلامات المنجزة دون التطرق إلى انحرافات النّظام وخيباته أو إلى الانزياحات عن القوانين العامة التّي ينتظر أن تطبّق في حدود السيمياء العامّة باعتبارها تؤسّس لمبادئ حدوث العلامات وقوانينها في المطلق وبصرف النّظر عن تحوّلات المواقف والإيديولوجيات والركائز والمادّة والمكان والزمان، الخ. كان هذا منطلق فلاديمير بروب (Propp)، وكان أيضا منطلق بارط، وكريستان ميتز، الخ، في حين لم تكن تطرح محاولات تقديم سيمياء عامّة إلاّ إذا كانت تطغى عليها الصبغة الفلسفيّة أكثر من التحليل العلمي الذي ظلّ مرتبطا بالمقاربات الجزئيّة، مثل الموسيقى والثقافة واللغة والسينما والرقص والسرديات والأنثروبولوجيا، الخ. وكان يفترض أن تكون السيمياء العامّة نقطة التقاء المقاربات العلميّة الجزئيّة تبين المبادئ التّي تربط بينها وتفسّر سبب تنافرها أو تناقضها، تصحّح توجهات النّظريات وتصوّبها، عوض التحويم في أعالي التجريد الذي لا يفيد التطبيق في شيء. بالإضافة إلى ذلك، ليست السيمياء العامّة ما كان يرمي إليه غريماس وكورتاس عندما أعلنا : «أنّ نظريّتهما بحث في سبيل سيميولوجيا عامّة». ويكتب غريماس وكورتاس متحدّثين عن نظريّتيهما أنّها تسعى لعرض كلّ السيمائيات، (وليس فقط سيمياء اللغة الطبيعيّة)، وأنّها تسعى كذلك لبناء نماذج قادرة على إنتاج الخطابات (وليس الجمل، فحسب)».[22] وحتّى إن اعتبرنا أنّهما حقّقا المنشود فليست هذه سيمياء عامّة في شيء، ولا تعدو أن تكون عمليّة احتواء. المطلوب هو تعميم المظاهر الخاصّة، أي تبريرا عاما لدلالة الخصوصيات، وليس تخصيص المظاهر العامّة، أي تبريرا خاصا لغياب دلالة الكليات.

II. ب. **تحديد أبعادها:**

II. ب.1. **شرط المكوّنات الأساسيّة \ الثانويّة:**

يقوم شرط المكوّنات الأساسيّة على المعطيات التالية: (1) قائمة محددة من الوحدات، (2) علاقات ثنائيّة أو ثلاثيّة حسب النّظريات، (3) قواعد تنسيق تنظّم أوجه تصرُّفها، (4) محتوى ينتقل بين أطراف العلاقات، بصرف النّظر عن طبيعة المنجز، أي في هذا المقام الخطاباتِ التّي يمكن للنظام أن ينتجها وعددها.

يبدو من خلال النّظريات التّي حاولت تمثّل السيمياء أنّ المكوّن الأساسيّ فيها هو موضوعها. كما يظهر في أهمّ تعريفاتها، نعني به العلامة، إذا قبلنا بالطبع بتعريفات أصحاب الفضل الأوائل.

يمكن ألا يقوم أيّ إشكال في هذا المستوى وأن يكون أحد المكوّنات هو الموضوع الرئيس لعلم من العلوم. لكن، لكلّ علم عدد معيّن من المكوّنات، فهل للسيمياء عدد معيّن من العلامات؟ هذا ما لا يمكن الجزم به حتّى وإن جعلنا مكان العلامات أصناف العلامات، التّي ما انفكّت تتكاثر كلّما اتسع مجال البحث السيميائي. ثمّ إنّ تماهي المكوّن والموضوع يطرح سؤالا يجدر أن نبحث له عن جواب وهو «هل إنّ العلامة وحدة دنيا أم هي مكوّنة من أجزاء أصغر تشكّلها»؟ وإذا كانت مكوَّنة من وحدات دنيا فهل هذه قارّة معترف بها بين النّظريات أم هي محلّ خلاف ونظر؟ ثمّ، هل إنّ اجتماع المكوِّنات الدنيا -إن وجدت- ضروري لتصبح العلامة علامةً، أم أنّ بعضها طارئ حادث وبعضها الآخر شرط لازم؟ وبعبارة أخرى، هل إنّ كلّ المكونات على الدرجة نفسها من الأهميّة بالنسبة إلى العلم موضوع البحث أم أنّ هنالك سلَّميّة تحكم العلاقات بين المكونات؟ فهل سنجعل العلاقات القائمة بالقوّة بين مكونات العلامة كما يراها بورس (أي بين المؤول والممثل والموضوع)،

السيميوطيقا العامّة» (*Trattato di semiotica generale*, Milano, RCS Libri, 2008).

22 يقول غريماس وكورتاس في لغتهما مقدّمين نظريتهما السيميائيّة العامّة، 1979، ص 159:
«…fondée sur la théorie de la signification, elle vise à rendre compte de toutes les sémiotiques (et pas seulement des langues naturelles) et à construire des modèles susceptibles de générer des discours (et non des phrases)».

مثلا، ثمّ كما يراها دي سوسير (أي بين الدال والمدلول) في نفس المستوى مع العلاقة بين الأنظمة السيميائيّة (تولّدٌ أم ترادف أم تضمين أم تأويل) باعتبارها موضوعات ومكوّنات للسيمياء في آن؟ وما هو موقع السيميوزيس أو السيرورة الدلاليّة من العلامة في هذه السلّميّة؟ هل إنّ السيميوزيس نتاج أم إجراء أم مكوِّن، أم هي كلّ ذلك في الوقت نفسه؛ بالإضافة إلى كونها أيضا موضوع السيمياء، في وصفة بورس؟ هذا، دون الأخذ في الاعتبار أنّ أحد مكونات العلامة أي المؤوِّل الذي ينبغي أن يصبح علامة في حركة لا متناهية كي تحصل عمليّة التأويل لإثبات العلامة علامةً، وعندها يستوعب الجزء الكلَّ ويستوعب المكوِّنُ الناتجَ. وهذا يدفع نحو تساؤل آخر: هل نعتبر الخاصيات مكوّنات أم إجراءات أم علاقات؟ فوجود الخاصيّة الانعكاسيّة وعدمها، أي أن يُهيأ لبعض الأجزاء أن تكون كلاّ ويمنع بعضها الآخر من ذلك، يجعل من هذه المكوِّنات عناصر ذات مستويات متنافرة بأحجام ووظائف متضاربة! وهو ما يطرح إشكال اكتساب العلاقات وتطوّرها.

II. ب 2. **ضبط مصطلحاتها**

«لا علم دون مصطلحات ثابتة.»
مارك غوّومي (Marc Guillaumie)

II. ب 1.2. أن ندرس مصطلحات السّيمياء يفترض أننا نعترف بها علما قائما له على الأقلّ استقلاليّة نسبيّة،[23] بصرف النّظر عن الشروط الأخرى المتمثّلة في وجود توافق أدنى بين النظريات، أو المناويل أو المنهجيّات التطبيقيّة. ولا نعني بالاستقلاليّة ههنا تخصيص قسم أكاديمي أو كليّة تدرس السيمياء؛ فهذا متوفّر رغم أنّه يمثّل الحالة الشاذة -مثلا جامعة لوند (Lund) بالسويد- وليس القاعدة، لأنّ القاعدة العامّة هي أن تدرَّس السيمياء إمّا في قسم اللسانيات أو في قسم الفلسفة أو في قسم الإعلام أو في أقسام الأدب من خلال بعض تطبيقاتها مثل السرديات في أقسام اللغة العربيّة وآدابها. فالمؤسّسة ليست موضوعيّة بما فيه الكفاية كي تجعل من دراسة أو بحث أو ميدان أبحاث علما قائما. ولن نثق كذلك بانتماء باحث لميدان معيّن حتّى نجزم أنّ ما يخوض فيه علمٌ لمجرد أنّه اشتهر بالعمل في حقل العلوم، بمعنى أنّنا لن نقع في الحكم المسبق الذي جعل كوبلي (Cobley) ينفي صفة العلميّة عن سيميولوجيا دي سوسير لأنّها تنتمي إلى اللسانيات التّي لم تنصِّب نفسها علما إلاّ من خلال سلطة الباحثين الذين اشتغلوا فيها، بينما يزعم أنّ سيميوطيقا بورس ينبغي أن تكون علما لأنّ نظريّته، من منطلق منبعها الفلسفي، تتخطى حدود الاختصاصات ولأنّ بورس بالذات عالم معروف اشتغل في مجالات العلوم الصحيحة قبل أن يأتي إلى السيمياء.[24] كلّ هذا يفرض اللجوء إلى معايير أخرى كما قلنا، منها مثلا أنّ لكلّ «علم» مجموعة من المصطلحات يختصّ بها، لها دلالات خاصّة واستعمالات مخصوصة تنحصر في حدود ذلك العلم يعرف بها وتعرف به.

للسيمياء معاجمها، فهل لديها مصطلحات ومفاهيم شبه متفق عليها أم أنّ المعاجم هي بدورها مؤسّسات تحكمها الإيديولوجيّات؟ فإذا كانت المعاجم تكفي لإقامة علم من العلوم لكان عدد العلوم يساوي عدد المعاجم.

وهذا ما نتلمّسه في مستوى السيمياء، لأنّ تحديد المصطلحات المستعملة يشي بالمقاربة المعتمَدة ولأنّ جرد المصطلحات يكاد يوازي تصنيف النظريّة السيميائيّة. فلا فائدة في التنويه إلى أنّ سيميولوجيا دي سوسير تستعمل مصطلحات لا يستعملها بورس وإلى أنّه يكفي أن نذكر الممثِّل [representamen] والمؤوِّل [interpretant] والموضوع «object» و«السيميوزيس»(sémiosis) و«الدال» (signifiant) و«المدلول»(signifié) حتّى نميّز سيميوطيقا بورس من سيمولوجيا دي سوسير. يمكن أن يردَّ علينا بأنها إشكاليّة شائعة في جلّ العلوم. فليكن! لكن علّمتنا المصطلحيّة ألا سبيل إلى القبول بالمشترك اللفظي دون الإخلال بالضوابط العلميّة. لذلك نعتبر

23 كان دي سوسير يتساءل منذ البداية لماذا لم يُعترف بالسيمياء علما مستقلا لها موضوعها الخاص بها (**دروس**، ص 34).
24 كوبلي، 2001، ص 7-8.

اللبس المصطلحي الحاصل خاصّة بين النّظريات الأولى السببَ الرئيس في إضعاف حظوظ السيمياء للارتقاء إلى درجة العلم حسب المواصفات الإبستيمولوجيّة التّي نحن بصدد تفحّصها. من ذلك، مثلا، أنّ كلّا من بورس ودي سوسير يستعملان مصطلح «رمز» (symbol) استعمالاتٍ مختلفةً. فيكون مرّة صنفا متضمَّنا وأحد أصناف العلامة (إلى جانب الإيقونة والقرينة)، كما هو الشأن في السياق البورسي؛ ومرّة مقولة متضمِّنةَ: «توجد وظيفةٌ رمزيّة كلما وجدت علامات»،[25] إذ يميّز دي سوسير بين العلامة والرمز. فالرّمز يخرج عن الاعتباط الذي يمثّل أبرز سمات العلامة إذ يرى دي سوسير أنّ الرمزَ علاقةٌ طبيعيّة بين الدال والمدلول. في المقابل، يستعمل كاسيرار[26] وأوغدن وريتشاردس[27] مصطلح «رمز» مرادفا تمام المرادفة لمصطلح «علامة»، كما يعرّفها دي سوسير. وقد تسبب هذا في كثير من الخلط نتج عنه لبس وأخطاء وعدم فهم. لذلك، نستخلص مما سبق أنّه مثلما تدلّ المصطلحات على النظريّة فإنّ النّظريّة تحدد دلالة المصطلحات. ففي مثلّث أوغدن وريتشاردس، مثلا:

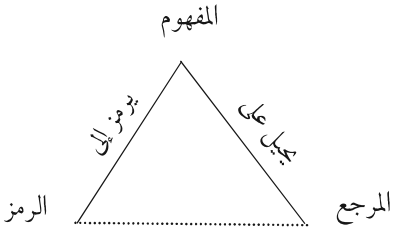

خيل إلى بعض الباحثين أنّ مصطلح «رمز» يناسب «الدال» عند دي سوسير، و«المفهوم» يناسب «المدلول» و«المرجع» يناسب «الشيء» أي المكوّن الذي أبعده دي سوسير من اعتباراته؛ كما عرضه ستيفن أولمان،[28] مثلا، واتبعه كثير من الباحثين العرب ظنّا منهم أنّه تكملة لنموذج العلامة عند دي سوسير وقد أضيف إليها «المرجع»،

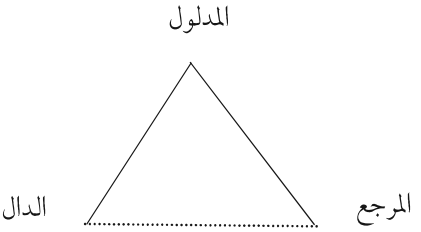

بينما يبدو المثلث، كما فسّره أوغدن وريتشاردس، ورسمه أركايني[29] تمثّلا معقّدا جدّا يستحوذ فيه الرمز على كلّ مقومات العلامة كما يراها دي سوسير، أي أنّ قاعدة المثلث اليسرى تحوي بمفردها ثنائيّةَ دي سوسير وأنّ أوغدن وريتشاردس كانا يعنيان بالرّمز ما كان يشير إليه دي سوسير باسم العلامة.

25 انظر بورس، نفسه ص 215: «Il y a fonction symbolique quand il y a des signes : *Écrits sur le signe*».

26 انظر كاسيرار (Ernst Cassirer, *Philosophie des formes symboliques*, passim). لا تحيد مقاربة كاسيرار عن نظريّة بورس كما يعتقد خطأ، بل تقوم وجهة نظره على تمثّل بورس للوظيفة الرمزيّة: «توجد وظيفة رمزيّة كلما وجدت علامات»، كما أسلفنا.

27 انظر أوغدن وريتشاردس ص 11 وما بعدها (Ogden & Richards, *The Meaning of Meaning*).

28 انظر أولمان (Stephen Ullmann) صص 56-57.

29 انظر أركايني ص 165 (Enrico Arcaini, *Principi di linguistica applicata*.).

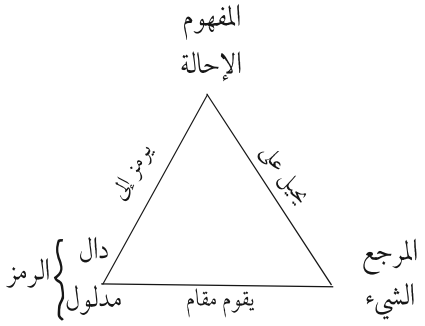

فمن يستطيع أن يستعمل دون تمييز مصطلح علامة «sign» أو رمز «symbol» عند أوغدن وريتشاردس وعند دي سوسير ويخرج منها سالما؟ أمّا «مثلث» بورس فهو أكثر تعقيدا مما يبدو، إذ هو كما يقول شاندلار، وكما تمثّله ميرّل (Merrell)،[30] مكوّن من ثلاث علاقات ثنائيّة:

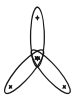

وليس من ثلاثة مكونات تربط بينها علاقة ثلاثيّة.[31] كما يمكن أن نراه في التقاليد الفلسفيّة عند أفلاطون وأرسطو الخ.[32] وهو يشبه حد التماهي منوال «أورغانون» بيهلر (K.Bühler) الذي يركّز على التمثيل كما يدل عليه عنوانه وعلى الوظيفة الإبلاغيّة فيجعل الباث مكان الدال والمتقبل مكان المدلول.

II. ب 2.2. **نظريّة تهدر مصطلحاتها:**

ما سبق لا يمثّل إلاّ بعض العينات مما يمكن الوقوع فيه من سوء التأويل والاستقراء المغلوط للمصطلحات. وإذا كان أحد أسباب الشّك في أنّ السيمياء علم بالمعنى الدّقيق فذلك لا يكمن في التعويم المصطلحي بقدر ما يترصّدنا في تضارب المصطلحات المستعملة بين مقاربة وآخرى وبين باحث وآخر، حيث لكلّ وجهة نظر منهجيّتها ومصطلحاتها ولا سبيل إلى التنقّل وسط هذه الرمال المتلاعبة دون التصريح مسبقا على أية أرضيّة نتحرّك. فما هو مقبول نظريّةً قائمة هنا لا يرقى لمستوى الفكرة الغريبة هناك وما هو حقيقة دغمائيّة عند البعض يبدو هراء مستحيلا عند الآخرين. ولا وجود لإجماع حول أي شيء تقريبا إلاّ في ما ندر. فكيف يكون العلم دون حدّ أدنى من التوافق وإذا كانت نقاط اختلافه أكثر من نقاط توافقه؟

هذا ما نصطلح على تسميته بـ«**هدر المصطلحات**»! في هذا الباب، كان يفترض أن يشير مصطلح «ماوراء السيمياء» أو «ميتا-سيمياء»، مثلا، إلى الخطاب الانعكاسي على السيمياء، أي أنّ ما قدِّم في باب إبستيميولوجيا السيمياء يفترض أن يكون منطقيا وفي المقام الأوّل «ميتا-سيمياء». لكن، وبسبب تلاشي الحدود -كما سنرى عند تحديد مجال البحث- فإنّ كلّ حديث عن شيء مّا يمكن أن يقدّم مرشّحا مقبولا ليكون ميتا-سيمياء. فلا

30 انظر فلويد مارال، ص28 (F.Merrell: «Charles Sanders Peirece's concept of the sign», in *Cobley* (edt)).

31 هكذا ينبغي أن نفهم ما يقوله بورس (*Écrits sur le signe*) ص 29 :

«Dans sa forme authentique, la Tiercéité est la relation triadique existant entre un signe, son objet et la pensée interprétante, elle-même signe, considérée comme constituant le mode d'être d'un signe».

32 انظر القائمة عند شاندلار، نفسه، ص 33.

غرابة أن يطرح ميشال أرّيفي، مثلا،[33] اعتمادا على إسقاط مجازي يجعل من الحُلم علامة، أنّ الكلام عن الأحلام يمثّل عمليّة ميتا-سيميائيّة !!!

لذلك لا مناص من القبول بتعريف هيالمسلاف للميتا-سيميوطيقا، رغم ما يحتويه من غموض ودائريّة[34] وإشكال،[35] باعتبارها «سيميوطيقا السيميوطيقا»، أي سيميوطيقا موضوعها السيميوطيقا،[36] إذ يمكن أن يكون الخطاب من نفس جنس الموضوع، كما أنّ الميتا-لغة هي في آخر المطاف لغة، كما نبّه إلى ذلك دي سوسير ومن بعده بنفنيست. ويمكن أن تكون من جنس مختلف، كما جاء عند هيالمسلاف الذي جعل السيميوطيقا موضوع السيميولوجيا. لكن، أن تعتبر الجمعيّة العالميّة للدّراسات السيميائيّة (*International Association for Semiotic Studies*) التمثيل البياني للخطاب[37] من قبيل الميتا-سيميوطيقي وليس عمليّة ترجمة إلى نظام سيميائي ثان، فهذا يعتبر بحق هدرا للمصطلحات وبابا مفتوحا على التعويم المصطلحيّ.

لا علم دون إجراءات بت! من هذا المنطلق، لنا أن نتساءل أوّلا عن الفاصل بين النّظري والتطبيقي، بين الموضوع وماوراء الموضوع، ثمّ عمّا يمكن أن نستبعده من الماوراء-سيميائي. هل ثمّة سبيل للفصل بين استعمال للعلامة نعتبره من السيمياء واستعمال للعلامة نعتبره من الميتا-سيمياء؟ فإذا كان فصل اللغوي عن الميتا-لغوي نسبيا سهلا، فكيف لنا أن نفصل بين العلامة وعلامة العلامة، إذا كانت هي بدورها علامة؟ وبخاصّة إذا خبرنا أن «المؤوّل» في نظام بورس هو أيضا علامة. ألا تكون سيميوطيقا بورس في آخر المطاف «ميتا-سيمياء»؟

هل إنّ كلّ نّظريّة ميتا-موضوعيّة بالضرورة؟ هل إنّ التمييز بين المصطلحات وتحديد مواضيعها وماهيتها، ميتا-علمي؟ هل يمكن أن نرقى بالتعريف إلى الميتا-علم؟ إذا اعتبرنا أنّ التعريف مجرّد تصنيف داخل العلم، فهل سنعتبر أنّ كلّ ما ورد حول السيمياء عند دي سوسير وبورس هو من قبيل الميتا-سيميائي، حتّى وإن لم يتفق هذا الكلام مع ما جاء عند هيالمسلاف؟ هل إنّ تعريف السيميوزيس، مثلا، عند بورس ميتا-سيميوطيقي، من منظور هيالمسلاف؟

دليل آخر على تبذير المجهود المصطلحي: كان يفترض أن يخصص مصطلح «ميتا-سيميائي» بشطريه للخطاب الانعكاسي حول السيمياء مرّة باعتبار المادّة والمكوّنات فيتعلق الأمر بـ«الميتا-سيميوطيقا» ومرّة حول التقابل الوظيفي للعلامات وعندها يكون الحديث عن «الميتا-سيميولوجيا»، بمعنى أنّه كان علينا أن نخصص الأولى للشكل ونخصص الثانية للمعنى. لكنّ رياح النّظريّات جرت بغير منطق الاقتصاد المصطلحي.

33 انظر ميشال أريّفي، ص 320 (.Michel Arrivé: «Freud et l'autonomie» (in *Parler des mots*, J. Authier-Revuz & alii (eds).(Presses Sorbonne-Nouvelle. Paris. 2004)).

34 يعرّف هيالمسلاف «السيميولوجيا» بأنّها «ميتا-سيميوطيقا» موضوعها السيميوطيقا غير العلميّة (أو السيميوطيقا الحاف). ومن هذا المنطلق، تكون الميتا-سيميولوجيا في نظره ميتا-سيميوطيقا علميّة موضوعها السيميولوجيا. (ص 151) وبهذا تكون الميتا-سيميولوجيا في نظر هيالمسلاف «ميتا-سيميوطيقا الميتا-سيميوطيقا». ويرى هيالمسلاف أن موضوع الميتا-سيميوطيقا هو السيميوطيقا، ويري بالتوازي أنّ اللسانيات ميتا-سيميوطيقا. لكنّ موضوعها لا يمكن أن يكون اللسانيات بل اللغة. فهل يجعل بالتوازي من مجرد الحديث عن الكلام بالجاري من الكلام ميتا-لغة؟ لأنّنا نشكّ أن يصنع الحديث عن الكلام بما هو من الكلام ميتا-لغة. ولا يجعلها كذلك إلاّ الحديث عن الكلام بما ليس من الكلام، كما أدرك ذلك أبو حيان التوحيدي، حين ميّز بين اللغة الواصفة واللغة الموصوفة: «أراكم تتكلمون في كلامنا عن كلامنا بما ليس من كلامنا». هذا شرط قيام الميتا-لغوي. فعندما يقول العربي أنّ لفظة «بغل» لا تعجبه، لا يقفز من اللغة إلى الميتا-لغة، بل إلى استعمال من استعمالات اللغة، باعتبارها سيميوطيقا. ونحن هنا إزاء مشكل «الميتا-» الذي ينعكس فيتماهى الموضوع والقول في الموضوع مرّة ويختلف مرّة. ثمّ، لماذا لا يمكن أن تكون الميتا-سيميولوجيا سيميولوجيا، في نظر هيالمسلاف؟

35 عندما يعرّف هيالمسلاف «**الميتا-سيميولوحيا**» بأنّها ميتا-سيميوطيقا يكون موضوعها السيميوطيقي السيميولوجيا. أليس هذا كفيلا بأن يجعل الميتا-سيميوطيقا في مرتبة أرقى وأنّ الميتا-سيميولوحيا ومعها السيميولوجيا مجرّد أنواع من السيميوطيقا؟

36 انظر هيالمسلاف، ص 150 (.L.Hjelmslev, *Prolégomènes à une théorie du langage*).

37 بالفرنسيّة: «représentation graphique d'un discours».

هذا لا ينفي بالطبع الشكل الدائري للسيمياء باعتبارها انعكاسيّة في كلّ مراحلها منذ أبسط تعريفاتها، إذ يقول بورس : «لا شيء بإمكانه أن يكون علامة ما لم يؤوّل باعتباره علامة»[38] وهذا يناسب ما يقوله كذلك جاكبسون حول دلالة العلامة التي ليست سوى العلامة التّي يمكن أن نترجمها إليها. لكن، كيف نؤول العلامة على أنّها علامة دون إنزالها ضمن نظام سيميائي يقوم بدوره على العلامة؟ هذه هي المفارقة إذًا! أو الدعوة إلى انعكاسيّة وظيفة العلامة التّي تؤوِّل العلامة. أو هو تقارب بينه وبين دي سوسير الذي يقول إنّ دلالة العلامة المطلقة تقع في علاقتها بالعلامات الأخرى ولا تكتسبها من سمات دلالية فيها أو بالرّجوع إلى الأشياء الماديّة. وهي ما عرف بـ«القيمة»(valeur) في الأدبيات البنيويّة. فليس للعلامة قيمة مطلقة خارج السياق. وهكذا، منذ أبسط التعريفات إلى إلى أعقد النّظريات تبدو السيمياء في جوهرها «ميتا-علم» بما أنّها «ميتا-علامة»، تعريفها الأكثر شيوعا يعترف بأنّها -مهما كانت المقاربة- خطاب يستعمل العلامة لدراسة العلامة.

لذلك نرى أنّ التمييز بين السيمياء والميتا-سيمياء ينبغي أن ينزل إلى مستوى العلامة التّي تمثّل المكوّن الأساسي لا أن يرتفع كما يفعل هيالمسلاف إلى أعالى التخمينات التنظريّة بالتمييز بين علامة الشيء وعلامة العلامة، حيث تكون الأولى من السيمياء والثانية من الميتا-سيمياء. لكن ما الذي سيكسر الدائرة كي يميّزَ بين العلامة شيئا والعلامة علامةً؟

II. ب 4. **لا علم دون إجراءات بت!**

منطقيا، كان يفترض أن اعتبار السيمياء علما مستقلا سيقودها إلى القطيعة الإبستيمولوجيّة، فلا تعتبر إلاّ ما ينتمي إليها لتستبعد ما لا ينتمي إليها، وتعتدّ بما يدخل ضمن مجالها لتتجاهل ما ليس من مشولاتها. لكنّنا لا نكاد نعثر على دراسة واحدة تتبنّى أطروحة الحلوليّة القائلة بأنّ السيمياء تتمثّل في دراسة العلامة في ذاتها ولذاتها كما كانت نظريّة البنيويّة حلوليّة، إذ يعتبر دي سوسير اللسانيات دراسةً للغة في ذاتها ولذاتها.

لذلك، ومع أنّ الدراسات السيميائيّة تطالب باستقلالها، فإنّها منذ بداياتها مع دي سوسير وبورس إلى يوم الناس هذا كلما حاولت الانعتاق ازدادت ارتباطا بالمجالات العلميّة الأخرى، حتّى أصبح تعدد الاختصاصات سمة من سماتها.

II. ب 5. **تحديد مجال البحث أو التطبيق:**

«على السيميولوجيا أن تبذل كثيرا من الجهد لمجرّد التعرّف على حدود مجالها.»

فردينان دي سوسير، **كراسات دي سوسير**. 1957، ص19.[39]

من البديهي أنّ أوّل عمل تقوم به إبستيمولوجيا السيمياء يتمثّل في تحديد مجال السيمياء: ما ينتمي إليها وما لا ينتمي إليها، ما ينتمي إليها وجوبا وما ينتمي إليها عرضا، الخ.

II. ب 5. 1. يخيّل للبعض أنّ تحديد مجال السيمياء بسيط من منطلق تعريفاتها الأكثر تداولا، أي أنّها «علم العلامات»[40] أو «دراسة أنظمة العلامات» وأنّه يكفي أن نقول إنّ مجال بحثها هي العلامات. لكنّ الأمر

38 انظر بورس عن شاندلار، ص 13 («Nothing is sign unless it is interpreted as a sign», Peirce, 2.172).

39 انظر دي سيوسير، نفسه: (La sémiologie aura beaucoup à faire rien que pour voir où se limite son domaine).

40 بينما يعرّفها جاكبسون، مثلا، بأنّ «علم العلامات المسمّى «**سيميوطيقا**» يتناول المبادئ العامّة التّي تقوم عليها بنية كلّ العلامات مهما كانت ومع أشكال استعمالاتها داخل الخطابات وكذلك مع خصائص مختلف الأنظمة ومختلف الخطابات التّي تستعمل مختلف أصناف هذه العلامات.» وفي نصّه:

«the science of signs termed *semiotic* deals with those general principles which underlie the structure of all signs whatever and with the character of their utilisation within messages as well as with the specifics of the various sign

يستحق أكثر من هذه المصادرة على المطلوب، لعدّة أسباب، أوّلها أنّ تمييز ما يمكن أن يكون العلامة ممّا لا يمكن أن يكون علامة محلّ خلاف. يقول هيالمسلاف إنّ «الحدود بين السيميوطيقي وغير السيميوطيقي تعكس موقفا وقتيا ما زالت تنقصه الدقة».[41] كان هيالمسلاف يصف وضع السيميوطيقا في زمانه، ولم يكن يعلم ولا يتكهن بما ستؤول إليه الأمور من بعده. ومع هذا، فإنّ ما يقوله يعكس حالة البحوث السيميائيّة في الوقت الراهن. فهي عاجزة على الأقل باعتبار تضارب النّظريات عن رسم حدود تقيّدُ العلامة وتميّزها عمّا لا يمكن أن كذلك، وإلاّ تلاشى مجالها وأصبح دود حدود. ثمّ إنّ التمييز، ضمن مجال البحث السيميائي، بين المادّة ووصفها (أي السيميوطيقي كما دعونا إلى ذلك) وبين النّظام ووظيفة المكونات (الذي يناسب السيميولوجي عندنا) ثمّ بين الفعل السيميائي التطبيقي وبين النّظري الصرف، وسبيل المفاضلة بينهما، كفيل بالطبع بتوضيح الحدود بين السيميائي والميتا-سيميائي. وكنّا أرجأنا النّظر في الموضوع إلى حين تتضح معالم النّظريّة...

فالتمييز بين الوظيفي النظامي والمادّي الوصفي يحدِّد مجال البحث السيميائي من منطلق الأهداف المرسومة وليس من منطلق مكوّنات العلامة. ذلك أنّ هدف السيمياء النّظريّ لا يمكن أن يتجاهل المبادئ العامّة (صوريّة ومجرّدة) التّي تحدد اشتغال كلّ نظام بصرف النّظر عن طبيعة العلامات ومجال سيرورتها التّي تكون من مشمولات السيمياء التطبيقيّة الحاملة لكلّ خصوصيّات التطبيق، أي أنّا ستكون جزئيّة، وخاضعة للزمان والمكان، ودون تأثير صارم في الجهاز النظريّ.

II. ب 5. 2. **مجال بحثها لم يحدد بعد بكل وضوح:**

«مجال السيمياء هو كلّ ما يمكن اعتباره علامة».

إمبرتو إيكو

يقول بورس، معلنا عن مثاليّة-إسمانية تقرّبه جديّا من دي سوسير، رغم تضارب المصطلحات والمنهجيّات، كما رأينا: «نحن لا نفكّر إلاّ بواسطة العلامات»[42] فيجعل من العلامة كما يقول بنفنيست: «أساس الكون بأكمله، إذ يشتغل باعتباره مبدأ تعريفيا لكلّ عنصر من العناصر وباعتباره تفسيرا لكلّ مجموعة، مجرّدة أو ملموسة» وبهذا يصبح الإنسان ذاته علامة. فإذا كانت خاصيته التفكير، ولا يكون التفكير إلاّ بالعلامة، كانت العلامة خاصيّة الإنسان. ومع هذا التعميم يتلاشى كلّ أمل في تحديد مجال السيمياء. ثمّ إذا كان الإنسان علامة وفكره علامة وحتى عواطفه علامة،[43] وإذا كانت هذه العلامات علامات بعضها لبعض فماذا يمكن أن يكون علامة بالنسبة إلى غيره دون أن يكون علامة في ذاته؟[44]

بالطبع، ثمّة باحثون يخرجون من مجال السيمياء هذا العنصر أو ذاك ولأيّ سبب من الأسباب. هكذا فعل جيمس هاريس (James Harris, 1796)[45] الذي قرر إخراج أسماء الأعلام من اللغة لأنّ هذه الأسماء دون دلالة وأنّ الدال يحيل مباشرة على المرجع. ولا وجود لاتفاق أيضا حول ما ينبغي أن يكون ضمن مجال السيمياء، إذ يُظهر تطور الدراسات السيميائيّة كيف تتمدّد حدود مجال بحثها مع تمدّد حدود المجالات العلميّة. فلم تكن سيمياء

systems and the diverse messages using those different kinds of signs» (Jakobson, *Selected Writings, Word and Language*, vol.2, p. 698)

41 انظر هيالمسلاف (*Prolegomènes*)، عن بنفنسيت، ص 57.

42انشر بورس : («We think only in signs», Peirce 2.302)

43 انظر بنفنيست، نفسه 1969، ص 45.

44 بنفنيست، نفسه.

45 انظر جيمس هارّيس، 1796 (James Harris, *Hermès ou recherches philosophiques sur la grammaire universelle*).

الكائنات المجهريّة تقع في مجالها، ولا ندري ما الذي سيأتي بعدها. ههنا يصحّ القول: لا علم دون إجراءات البتّ!

II. ب 5. 3. **نظريّة لا موضوع لها:** نضيف إلى ما سبق تداخل الاختصاصات (علم النفس، والأدب، والفلسفة، وعلم الاجتماع، واللّسانيات، والإناسة، وعلم الحياة، والأعصاب، والبلاغة، والتواصل، والقانون، والطب، والموسيقى، والإعلام، والتربية، والعرفانيّة...)، والوسائط (المرئي[46] والمسموع والمحسوس والملموس والمشموم...)، وحتّى المغناطيسي والكيميائي، والسياقات الزمانيّة والمكانيّة والدوافع والأهداف، الخ، وهذا التداخل يقود منطقيّا إلى الشكّ النّظري أو الاعتقاد السلبي بأن مجال السيمياء مجال فراغي عديم الحدود، ضبابي المعالم؛ ويدفع إلى استنتاج أنّ السيمياء كالأدب نظريّة لا موضوع لها، كما كان يقول ابن خلدون عن الأدب «الذي لا موضوع له». وفي غياب نظريّة سيميائيّة عامّة، تفصل بين المبادئ والتطبيقات، وبين المادّي والوظيفي وبين المكوّن والموضوع وبين الوحدة الدنيا والعنصر المركب،[47] لن يتجرّأ باحث على القول إنّ مجال السيمياء يمثّل كلاّ مستقلاّ محدّدا بحدود واضحة، كما يجب أن يكون في مجال بحث أيّ علم من العلوم.

ففي أضيق تجلياتها كما في أوسع الاعتبارات، من التأسيس إلى الإبلاغ إلى الاستقبال، ومن الوعي إلى الإحساس، تتموقع السيمياء في مجال المعنى. والخاصية المشتركة بين كل الأنظمة ومعيار انتمائها إلى السيميولوجيا هي كونها دالّة، وهدفها الأساسي إنشاء المعنى وإبلاغه. ألا ترادف السيميوزيس في نظام بورس أحيانا المعنى!؟ ألا تُعرّف السيمياء أحيانا بأنّها الإستعمالُ الدالُّ للعلامة!؟[48]

لهذا السبب يمكن أن تناسب السيمياء بحق علم الأحياء، لأنّ لا شيء يخرج عن بوتقة المعنى، حتّى اللاّمعنى. لكن، ألسنا ندفع السيمياء وننزلق بها نحو دمجها مع «علم الدلالة العام»، أو النظريّة العامّة للتواصل التّي تجعل من كلّ شيء منتجا للمعنى حتّى الوعي باللقمة التّي تنزلق في الحلق، الخ؟

II. ب 5. 4. في **الإبهام قوّة العلامة:**

> «يبدو أنّ سبب التردد الذي يحيط اليوم بالفلسفة العقلانيّة حول تحديد درجة تأثير العلامة بدقّة مردّه غياب تعريف لفظة "علامة"». مان دي بيران Maine de Biran (1766–1824)

ويبدو أنّ الأمر لم يتغيّر كثيرا، إذا استبدلنا الفلسفة العقلانيّة بالسيمياء، بالنظر إلى ما يقدَّم على أنّه تعريف مقبول للعلامة. فالعلامة تأويل ناتج عن عمليّة تأويل لا توجد إلاّ في نظام علامات، لأنّها غاية ووسيلة وليست منطلقا. رأينا أنّ ما يُعتبر في مختلف النّظريات تعريفا للعلامة يقوم إمّا على المكوّنات أو على تصنيف العلاقات بين المكونات،[49] أو في أفضل الأحوال على وظيفة العلامة في سياق مّا، أو داخل حيّز معيّن. وأن يعرّف بورس ودي سوسير العلامة بهذه الطريقة غير المباشرة دليل على صعوبة التعريف المباشر للعلامة وإشكاله. بل أصبح القول بعدم وجود تعريف مقنع للسيمياء أقرب إلى الصواب، وبخاصّة إذا كانت السيمياء تظهر بهذه الوجوه المختلفة، خاصّة مع تعدّد[50] أوجه تناولها التي تتمازج دون أن نرى لها قيمة إجرائيّة، أو تطبيقات، أو جدوى أصلا.

لكن، هنا تولد المفارقة! فقوّة العلامة تكمن بالذات في طبيعتها الفضفاضة، كما تفطّن إلى ذلك مان دي

46 ما يعبّر عنه بالأنغليزيّة بمصطلح «visual semiotics».

47 ذلك أنّ شرط قيام نظريّة سيميائيّة عامّة يكون بتجاوز خصوصيات النّظريات المرتبطة بمجال دون آخر وبركيزة دون أخرى، وبمكان أو زمان دون آخر، تميّز بين الوحدة والعنصر الوظيفي السياقي...

48 انظر شاندلار، نفسه، ص 13 (the meaningfull use of signs which is at the heart of the concerns of semiotics).

49 إحداها قائمة على الشبه والأخرى على الاصطلاح والثالثة على الارتباط الفيزيائي.

50 عشرة، حسب بورس (*Écrits sur le signe*)، ص 184 دون اعتبار التصنيفات الجزئيّة.

بيران (Maine de Biran). وبالتالي، قد لا يكون غياب تعريف العلامة عنصرا سلبيّا: «هكذا، كلّما ضعف تحديد العلامة، كلما كانت العلامة أقوى، إذ تكون لها قدرة تمثيليّة أشدّ. وبهذا تستطيع التعبير عن أكبر قدر ممكن من الأشياء المتمايزة».[51]

II. ج. **التصنيف النوعي للسيمياء:**

من ينكر قيمة كتاب «**العلامة**»(*Segno*) لإمبرتو إيكو في سياق الكتابات السيميائيّة؟ فالكتاب مشهور مذكور! بيد أنّ هذا الكتاب بالذات لا يعدو أن يكون دراسة تصنيفيّة للعلامات. فهل إنّ الاكتفاء بتصنيف اللغات إلى دمجيّة وتأليفيّة وتحليليّة وعازلة كافٍ لكي يعتبر مساهمةً كبيرة في التعريف باللسانيّات!؟ وهل يمكن أن تقتصر السيمياء على التصنيف النوعي للعلامات؟ وما هو موقع هذا من السيمياء؟ وهل يمكن أن نعتبرها دراسة سيميائيّة أصلا إلاّ بطريقة غير مباشرة؟[52] ألا تقع مثل هذه الدراسات في تقاطع السبل، وسطا بين النّظري والتطبيقي وبين الميتا-نظري والميتا-تطبيقي؟

ثمّة تصنيفات تعتمد موضوع المقاربات لتصنيف النّظريات السيميائيّة، كالسيمياء الاجتماعيّة (social Semiotics) والسيمياء النفسيّة (psychosemiotics) والسيمياء الحيوانيّة (zoosemiotics) في مقابل السيمياء الإنسانيّة (anthroposemiotics)، على سبيل المثال. فالعلامة لا تُدرس مجرّدة، بل منضوية تحت نظام علامات محدّد كالسينما، والصورة، والسرد، والكتابة، والاتصال، الخ.. وبعضها الآخر يعتمد المنظِّرين ليصنِّف الدراسات إلى صنفين أساسيين على أساس المنهجيّة والمصطلحات المستعملة: سيميولوجيا دي سوسير من جهة وسيميوطيقا بورس من جهة أخرى، فينزّل مختلف الدراسات منزلة أعلامها، جاكوبسون وبوهلر وغريماس ولوتمان، وإيكو وموريس وأوغدن وريتشاردس الخ، أصنافا منفصلةً، بل تطبيقات تقوم على وجوه معيّنة من عملة واحدة، تنتمي إمّا للأوّل أو للثاني أو تحاول التقريب بينهما. وقد تُستثنى منها نظريّة «علم الدلالة العام» التي وضعها ألفرد كهشيبسكي والتي وسمها روي هاريس (Roy Harris) بـ«السيمياء الاندماجيّة» (integrational semiology)، خاصّة في الدراسات العربيّة، لأنّها تقوم على أسس مختلفة تمام الاختلاف ولها مقومات نظريّة تتميّز بها، تمتدّ من مجرّد التعامل مع الجزئيات المصطلحيّة ووجهات النّظر إلى المبادئ العامّة التّي تحكم طبيعة العلامة وتصرّفها في إنشاء المعنى. لذلك، إذا رمنا تصنيفا، وضعناها كلّها -مقابل سيمياء كهشيبسكي الاندماجيّة، التّي سنعود إليها لاحقا- في سلّة واحدة، نسمها رغم الفوارق التّي تفصل بينها أحيانا وتجعل من العسير فهم المقصود دون تدقيق مصطلحي مسبق ضمن «السيمياء الكلاسيكيّة»، أو كما يسمّيها روي هاريس ضمن «السيمياء الأرسطيّة».

II. د. **تحديد أهدافها** :

السيميولوجيا تعلمنا فيمَ تتمثّل العلامات وأي قوانين تحكمها»

فردينان دي سوسير

تبنى إبستيمولوجيا علم من العلوم على قاعدة أهدافه.

ثمّة من يشكّك في جدوى السيمياء وإن كانت لها أهداف واضحة أصلا. وليست النكتة التّي يوردها شاندلار[53] بريئة كما يظن بل هي عميقة الدلالة حبلى بالاستتباعات: «تعلّمنا السيميوطيقا أشياء معروفة، بلُغة لن نفهمها أبدا». لقد كان الإنسان منذ البدء مستعملا للعلامة فهل كان بحاجة إلى دراسة أنواع العلامات كي

51 مان دي بيران، عن إيشباخ (Eschbach)، ص62.

52 انظر ما يقوله فرانسوا راستيي، 2001.

53 انظر شاندلار، نفسه ص 10. وهو ينقلها عن بادي وانل (Paddy Whannel) عن زايتر (Seiter, 1992:31).

يحسن استعمالها؟ وهل يكفي أن يطرح أحد الباحثين أنّ هدف أهداف السيمياء يكمن في جعلنا ندرك أننا نعيش كونا تحكمه العلامات؟ يذكّرنا هذا القول برولان بارط الذي كان يرى أنّ هدف مقاربته السيميائيّة يتمثّل في الوعي بأنّ كلّ شيء في المجتمع البشري علامة ينبغي استقراؤها،[54] أو أنّنا نفهم هذا الكون من خلال الأنظمة التّي تنظّم هذه العلامات. أليس المردود هزيلا مقابلة بالثمن النّظري الباهض الذّي يُبذل!؟ فثمّة طرق أقرب وأبسط لإفهام ذلك لسائر البشر، عوض الآليات المعقّدة التّي تنفّر أكثر القرّاء استعدادا وحسن ظنّ.

ولمّا كانت لكلّ مقاربة جزئيّة أهدافها الخاصّة التّي لا يمكن أن ترتقي إلاّ بطريقة استثنائيّة أو بإسقاط اصطناعي لدرجة تمثيل أهداف السيمياء في دقّتها وشموليّتها، كانت إقامةُ «سيمياء عامّة» مطلبا نظريّا ملحّا، كما أسلفنا. فهي وحدها الكفيلة بضبط الأهداف النّظريّة العامّة وتفصيل الأهداف الجزئيّة التطبيقيّة. وفي غياب مثل هذه النّظريّة العامّة يصبح من المنطقي التخلّي عن زعم وجود ما يجمع كلّ المقاربات في كلٍّ نظريّ واحد. وعندها ننادي بنوع من «الفديراليّة النّظريّة» التّي تجمع في التوجّه وتفرّق في المنهج والمكونات والنتائج وتترك لكلّ بحث خصوصيّته. في هذا السياق، تكتسب نظريّة يوري لوتمان (Yuri Lotman) لـ«لدائرة السيميائيّة» «semiosphere» معنى خاصّا، إذ تجعلها أشدّ «واقعيّة» وتحدّد هدف السيمياء وحدودها بالنسبة إلى سياق مّا : «يمثّل مفهوم الحدّ أحد المتصوّرات الأساسيّة في ضبط مجال السيمياء»[55] و«أن تكون للسيمياء حدود شيء مهمّ في ذاته»،[56] لأنّ لعالم الطفولة أو الحيوانات الاصطناعيين الواقعين خارج حدود الثقافة المتعارف عليها، مثلا، آليّات سيميائيّة خاصّة توجّه تأويل العلامات. ويكون عندها هدف السيمياء دراسة تكوين المعنى داخل دائرة سيميائيّة معيّنة. عندها نستطيع فهم ما يقوله جاكبسون الذي يرى أنّ من أهداف السيمياء التعّرف على المشاكل التّي تثيرها مقارنة الأنظمة السيميائيّة. ولن نتمثّل أهميتها النّظريّة إلاّ إذا وضعنا ما يقوله جاكبسون في دائرة الترجمة باعتبارها «دائرة سيميائيّة»، من منظور لوتمان. ويظلّ من الوهم الاعتقاد أنّ ما يزعم أنّه هدف السيمياء الأساسي يهمّ النّظريّة ككل. بل إنّ بداية الحكمة تتمثّل في القبول بتحديد مجالات سياقيّة جزئيّة، ولو وقتيّا.

II. مقومات السيمياء الكلاسيكيّة والسيمياء البديل :

«حيث ترى العلامة ترى الإيديولوجيا»[57] هكذا قال فولوشينوف! وكلّ إيديولوجيا قائمة بالضرورة على سيمياء مّا. ألم يستعمل رولان بارط السيمياء لتعرية الإيديولوجيات؟ فهل يكون أحد أهداف السيمياء تعرية الإيديولوجيّات؟ ولماذا لا يكون من مهام الإبستيمولوجيا محاولة الكشف عن مقوّمات السيمياء الكلاسيكيّة!؟هذه السيمياء التّي أصبحت حقيقة راسخة بعد أن تبنّتها الأغلبيّة الساحقة من الباحثين والمنظرين هي موروثنا المشترك من الثقافات البشريّة، منذ اختراع الكتابة وربّما قبلها أي منذ ارتباط العمليّة التصويريّة الأولى بالتمثيل وفكرة قيام العلامة التصويريّة مقام شيء مّا. ولفرط رسوخها في التقاليد الفكريّة أصبحت هذه السيمياء جزءا من البنية الفكريّة وساد الاعتقاد بأنّها المنوال الأوحد لاشتغال العلامة وتكوينها.

أ. إيديولوجيا السيمياء السّائدة:

تقوم هذه السيمياء «الكلاسيكيّة» على مجموعة من الخاصيّات بعضها جوهري وبعضها الآخر إجرائي.

54 وهو صدى لما كان يقوله بورس حول الإيقونة، يقول ص 148:
«par conséquent, n'importe quelle chose peut être un *substitut* de n'importe quelle chose à laquelle elle ressemble»

55 انظر يوري لوتمان (Yuri Lotman, «On the semiosphere», in *Sign Systems Studies, n°*33, vol.1, 2005, pp.205-229)، ص208.

56 انظر يوري لوتمان، نفسه، ص 213.

57 انظر بختين-فولوشينوف، ص 25 :
Bakhtine (M.)-Voloshinov (V.), *Le marxisme et la philosophie du langage*. Paris, Minuit, 1977» :(là où on trouve le signe, on trouve aussi l'idéologie. Tout ce qui est idéologique possède une valeur sémiotique».

ويبدو أنّها في جوهرها **تمثيليّة، واستبداليّة، وإبلاغيّة**.[58]

أ.1. **تمثيليّة** :[59]

تعرّف العلامة اعتمادا على هذه الخاصيّة[60] بأنّها **تقوم مقام شيء** آخر غيرها. وكي يصبح شيء مّا علامة ينبغي، كما أسلفنا، أن «يمثّل» شيئا آخر، [61] بل أضحت هذه الوظيفة الركيزة الأساسيّة التي تقوم عليها تسمية العلامة لذلك لا غرابة إن كانت ترادف العلامة، من وجهة نظر بورس : «العلامة أو الممثل (representamen) هو ما يقوم مقام شيء آخر...».[62] وهو يشير إلى العلامة باعتبارها الممثّل (representamen)، فكرةً كانت أو شخصا، مثلما تمثّل الصورة وتدلّ على مرجعها. وبالتوازي، كلّما كان هناك تمثيل كانت هناك علامة. لذلك علّمونا أنّ العلامة موضوعة من أجل شيء مّا وأنّها تدلّ على الشيء الذي وضعت من أجله وتقوم مقامه حتّى أنّ بعض المنظرين يحتجّون بأنّه لو كان بإمكاننا أن نضع تحت أنظار المخاطَب في كلّ مرّة حنشا حيّا لما احتيج، كي يشار إليه، لاستعمال العلامة اللغوية «حنش». وتعتبر هذه الخاصيّة التمثيليّة خطوة مهمّة نحو التجريد والتخلّص من العلاقة الكراتيليّة التّي تخلط بين الرّمز وما يمثّله الرمز فتماهي بينهما : الرمز (اللفظ) = الشيء . حتّى أنّ بعض الثقافات تخاف الألفاظ وتحظرها. ورغم قول بعض أتباع دي سوسير إنّ لفظة «كلب» لا تعضّ، إلاّ أنّه من أكبر المدافعين عن تمثيليّة الرمز اللغوي.

ويستعمل العامّة هذه الخاصيّة بكلّ تلقائيّة حتّى أنّ أحدا لم يعد ينتبه إلى سؤال من قبيل «ماذا تمثّل هذه العلامة؟» وكأنّ العلامة هي التي تمثّل وليست العلاقة التمثيليّة التّي يقيمها المستعمل انطلاقا من السيمياء المعتمَدة. ولن نتمثّل الإرباك الذي تولّده عبارة ميغري «هذا ليس غليونا»[63] إذا لم نضعها في سياق الخاصيّة التمثيليّة للعلامة اللغويّة.

أ.2. **استبداليّة** :

بالاعتماد على تعريف العلامة عند بورس، تكون الاستبداليّةُ نتيجة طبيعيّة للتمثيليّة. يقول بنفنيست:[64] «وظيفة العلامة التمثيل، والقيام مقام شيء آخر مع الإشارة إلى الشيء موضوع **الاستبدال**».[65]

أمّا عن تعريف العلامة في السيمياء الكلاسيكيّة التّي أقام عليها دي سوسير نظريّته، فلا وجود للعلامة إلاّ في نمط استبدالي (paradigmatique) ولا «قيمة» لها خارج تقاطع النمط الاستبدالي بالنسق الأفقي التركيبي (syntagmatique). فلا تدرك علاقة التنافر أو الغياب إلاّ في سياق النّظام الذي تستعمل فيه العلامة. فكيف يمكن أن نرسّس (= نعيد بناء) العنصر الغائب إذا لم نكن نتمثّل النّظام بأكمله وليس المنجز منه، فقط؟ فلا

58 على الأقل حسب روي هارّيس (Roy Harris) 1995.

59 بالأنغليزيّة «representationnist».

60 حتّى أنّ شاندلار يعتبر أنّ موضوع السيمياء هو «كلّ ما يقوم مقام شيء آخر»، انظر شاندلار 2002 ص 2 : «anything which "*stand for*" something else».

61 بورس، نفسه، ص 122.

62 انظر بورس (Peirce, *Écrits sur le signe*, p. 121):

«Un signe, ou *representamen* est quelque chose qui tient lieu pour quelqu'un de quelque chose sous quelque rapport ou à quelque titre. Il s'adresse à quelqu'un, c'est-à-dire créé dans l'esprit de cette personne un signe équivalent ou peut-être un signe plus développé».

63 عرض ميغري (Maigret) صورة غليون كتب تحتها «هذا ليس غليونا» (Ceci n'est pas une pipe!).

64 بنفنيست، نفسه، ص51.

65 يقول بنفنيست في نصّه :

«Le rôle du signe est de représenter, de prendre la place d'autre chose en l'évoquant à titre de *substitut*»

هويّة إذًا للعلامة إلاّ من خلال إمكانيات استبدالها في نسق تركيبي معيّن. ولتفسير هذه الخاصيّة الاستبداليّة، عادة ما يلجأ المنظّرون إلى استعارة رقعة الشطرنج: إذا عوضنا قطعة الرخ المصنوعة من العاج بممحاة من مطاط فإنّ للممحاة قيمة الرخ، بسبب علاقاته بالعلامات الأخرى وليس بسبب مكوناته الفيزيائيّة الماديّة. هكذا تجعل السيمياء الكلاسيكيّة التّي أسست للبنيويّة من العلامات عناصرَ افتراضيّة في نمط استبدالي، ولا قيمة لها إلاّ في سياق ذلك الجدول الاستبداليّ المفترض الذي تنضوي تحته. ففي الجملة: «اشترت المرأة فستانا ثمينا !» لا يأخذ كلّ رمز هويّته إلاّ من امكانيّات استبداله:

اشترت	المرأة	فستانا	قصيرا،
باعت	البنت	تنّورا	ثمينـا،
نامت	الأمّ	ø	طويلا،
1	2	3	4

وتؤكّد هذه الخاصيّةُ الاستبداليّة الخاصيّةَ التركيبيّة النسقيّة لكنّها توقعنا في الوهم بوجود علاقة تماثل بين هذه الألفاظ بحجّة استبدال الواحد بالآخر. ولم نكن لنتعرّض لهذه القضيّة بالتفصيل لو لم يكن لها تأثير مباشر على ارتباط السيمياء بنظريّة الترجمة. وسنرى كيف أنّ تعريف الترجمة باعتبارها استبدال مادّة لغويّة بأخرى مع الحفاظ على المحتوى الدلالي -وكأنّهما في نفس النّمط الاستبدالي- يجد رافده في هذه المقاربة للعلامة اللغوية صلب هذه السيمياء الاستبداليّة.[66] فمثلما يسمح النمط الاستبدالي باستبدال «اشترت» بـ«سرقت» يمكن أن يسمح كذلك باستبدال «... ,acheter/comprare/ buy/ kaufen» بـ«اشترت»، الخ. وبالتوازي تجد السيمياء رافدا تعريفيّا في الترجمة يعبّر عنه مفهوم «الفكر الترجمي» (translative thinking) الذي وضعته فيكتوريا ويلبي، الفيلسوفة التّي كانت على صلة وثيقة ببورس. تقول ويلبي في هذا السياق: «إنّ كلّ شيء هنا يوحي لنا بشيء آخر أو يذكّرنا به»،[67] أي إنّ العلامة تقوم في الإجراء السيميائي مقام شيء آخر بالطبع، لكنّها ليست مستقلّة عن سائر العلامات، بل مرتبطة بها ارتباطا، ولا يتم تأويلها إلاّ بعلامات أخرى.[68]

أ.3. **إبلاغيّة :**

تظهر هذه الخاصيّة في تعريف بورس حين جعل للعلامة التمثيليّة الاستبداليّة، كما رأينا، وظيفة إبلاغيّةً أيضا. فالعلامة بالنسبة إليه : «شيء يقوم مقام شيء آخر، وهي موجّهة لشخص مّا، بأي وجه من الوجوه ولأي غرض كان».[69] وتظهر هذه الوظيفة بالخصوص في ما يعرف بسيمياء التواصل مقابل سيمياء الدلالة. وسيمياء بورس هي بالأساس سيمياء تواصليّة، وليست سيمياء دلاليّة. لذلك نرى بورس يعرّف العلامة في كلّ مرّة من منطلق وظيفتها الإبلاغيّة التواصليّة.[70] ويعرّفها إيريك بويسانس (Buyssens)، أحد أشد المدافعين عن السيمياء التواصليّة، مترجما تعريف بورس إلى عبارات أكثر صراحة إيديولوجيّة، قائلا بأنّ السيمياء لا تعدو أن تكون : «دراسة أساليب التواصل، أي الوسائل المستعملة للتأثير في الآخَر الذي يتقبّلها على هذا الأساس».[71]

66 نذكّر بالمناسبة بما قاله جاكبسون عن مقارنة الأنظمة السيميائيّة ثمّ كيف إنّ «دلالة العلامة هي العلامة التّي يمكن أن نترجمها إليها».

67 انظر ويلبي 1903 [1983] ص 43 : «everything suggests or reminds us of something else...».

68 انظر بتريلّي ص 233 (Petrilli «Translation, Semiotics and Ideology » in *TTR*, 1992)

69 انظر بورس، نفسه، ص 215 :

Écrits sur le signe : «Un signe est quelque chose *tenant lieu de quelque autre chose* **pour quelqu'un** sous quelque rapport ou à quelque tire».

70 التواصل هو شكل من أشكال السيرورة الدلالية أو السيميوزيس (أي فعل الدلالة)، كما يقول كوبلي (Cobley)، ص5.

71 انظر بويسانس (1967، ص 11) في لغته، وقد ورد في «*Écrits sur le signe*»، ص 213، يقول :

وقد اعتبرنا بموجب هذا التعريف أنّ الوظيفة الإبلاغيّة بديهية ولا يمكن أن نضعها موضع شكّ. إلاّ أنّها ليست الهدف الوحيد من استعمال أنظمة العلامات. وعليه فهي مصادرة على المطلوب تضع الجزء مكان الكلّ والتواصل هدفا حصريّا للعلامة صلب كلّ الأنظمة السيميائية. بل إنّ هذه الوظيفة تقرّر بأنّ العلامة لا تكون علامة إلاّ إذا كانت لها وظيفة إبلاغيّة، نافية أو تكاد كلّ الوظائف الأخرى ومركّزة على التواصل. فالقضيّة دائريّة إذًا ويبقى تجاوزها رهن الخروج من حلقة السيمياء التّي تؤسّس لها. ومع هذا، لا نرى ماذا يريد أن يُبْلغ من يحدّث نفسه، أم أنّه لا يعلم بما يحدّث به نفسه إلاّ عندما يفعل ذلك؟

لكن، بينما توجّه هذه الوظيفةُ الإبلاغيّة التّي بني عليها منوالاَ دي سوسير الذي يصرح بأنّ اللغة فعل اجتماعي وبورس الذي يقول إنّ العلامات موجّهة بالأساس لغرض مّا السيمياءَ إلى نوع من **الأداتيّة** (instrumentalism)، فإنّ الهرمينوطيقا (hermeneutics) أو التأويليّة تعتبر النظام السيميائي قبل كلّ شيء «تأويلا» وتضفي عليه بعدا إبداعيّا. لكنّ ما يوقعنا مرّة أخرى في حيرة هو جدليّة مقاربة بورس التّي تحدد وظيفة العلامة بالإبلاغ وتجعل المؤوّل [l'interprétant] أحد مكوّناته الأساسيّة! ثمّ أليست السّمة الوحيدة الثابتة في تعريف العلامة في جلّ النّظريّات هي كون العلامة لا تكون علامة إلاّ داخل نظام تأويلي!؟

ب. **السيمياء وتوطين المعنى :**

وينبغي كذلك أن نلفت النّظر إلى أنّ من السّمات الإجرائيّة للسيمياء السّائدة (أي السيمياء الكلاسيكيّة) اعتبار العلامة حاملة لدلالة ثابتة خارج سياق الاستعمال (لكن داخل سياق نظام علامات)[72] توجّه استعمالها، في حين يمكّنها استعمالها في سياق معيّن من اكتساب معانيَ سياقيّة تضاف إلى تلك النواة الدلاليّة أو تعدّلها. باعتماد هذه النّظرة فقط نعي كيف قسّمت ورتّبت وميّزت الدلالات إلى صنفين متقابلين، في كلّ النّظريّات تقريبا دون استثناء[73] :

أوّل	#	ثانـ(ـو)ـي (وثالث)
حقيقي	#	مجازي
أصلي	#	عرضي
بدهي	#	إبداعي...

ولن ندخل في هذا الجدل لتزعم ألاّ وجود أصلا لشيء اسمه المعنى الحقيقي في مقابل معنى آخر نضفي عليه صبغة المعنى المجازي، إذ، إذا تأمّلنا في تاريخ اللغات وتطوّرها، أنموذجا، فلا سبيل إلى مثل هذا التمييز إلاّ باعتباره مرحلة من مراحل التحليل البيداغوجي. سنبقى إذن في حدود موضوعنا لنقول إنّ هذه السيمياء تعتبر منطقيّا أنّ الدلالات الأصليّة في العلامات. لقد كان جون لوك، مثلا، يعتبر صراحة أنّ دلالة العلامة ثابتة مستقرّة اعتمادا على أنّ «اللفظ علامة الفكرة».[74] ويبدو ، إن أحسنّا الفهم، أنّ الأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة إلى بورس الذي يعرّف العلامة بأنها «شيء محدد بشيء آخر أسمّيه موضوعه...».[75] في المقابل، تولّد السياقاتُ المعاني الثانويّةَ\ الثانية. هكذا نفهم المقابلة التّي جعلها بورس بين العلامة النمطيّة «type» و العلامة الحادثة «token» وكذلك دي سوسير بين اللغة (باعتبارها نظام العلامات المجرّد) والكلام (باعتباره الاستعمال المنجَز). وهي نقطة أخرى

«La sémiologie peut se définir comme l'étude du procédé de communication, c'est-à-dire des moyens utilisés pour influencer autrui et reconnus comme tels par celui qu'on veut influencer».

72 يعتبر بورس أنّ المعنى مرتبط بالسياق المرجعي وكذلك بمنطق النّظام.

73 حتّى تلك التي تقابل بين ثلاثيات وليس بين ثنائيّات.

74 انظر لوك، (Locke: «Words are signs of ideas». *Essay*).

75 انظر بورس، نفسه، ص 51 : «Je définis un Signe comme étant quelque chose qui est si déterminée par quelque chose d'autre...».

يمكن أن تقرّب بينهما رغم الفوارق الإجرائيّة التّي توجد بين «العلامة النمطيّة»-«اللغة» و«العلامة الحادثة»-«الكلام».

لذلك أثير جدلٌ بين المقاربات السيميائيّة وبالتحديد بين من يعتبر أنّ المعنى يهمّ العلامة لأنّها حاملة للدلالة،[76] وبين من يميّز بين المعنى والدلالة[77] فيعتبر أنّ المعنى سياقي بالدرجة الأولى، أي إنّه تأويلي، ومن بينهم إمبرتو إيكو. لكنّهم متفقون في ما بينهم -مع بعض الاستثناءات النادرة- حول اعتبار العلامة المفردة ذات نواة دلاليّة ثابتة تتكيّف مع السياقات لتوجّه الاستعمال. ولمّا كانت هذه القضيّة تثير مسألة وجاهة وجود السيمياء إلى جانب علم الدلالة، فإنّ الباحثين سارعوا إلى الفصل بينهما اصطناعيّا على أساس هذا التمييز بين العلامة النمطيّة\الحادثة أو اللغة\الكلام. وهكذا يجعل بنفنيست، مثلا، الفرقَ بين علم الدلالة والسيمياء في كون السيمياء تهتم بالنواة، أي بالعلامة النمطيّة وتتوقف مهمتها في التعرف على العلامة ومحتواها داخل المجموعة التّي تستعملها،[78] أي داخل نظام العلامات، كما قلنا آنفا، بينما يهتم علم الدلالة بالمقاصد والاستعمالات الخاصّة بالسياقات. من وجهة النّظر هذه، تكون مهمة السيمياء التعرف (على العلامة) ومهمة علم الدلالة الفهم (الخطاب).[79] بينما يميّز جاكبسون بين الدلالة العامّة للعلامات (أي النواة الثابتة المتعلقة بموقع العلامة من النّظام) ويجعلها من علم الدلالة ليخصص المعنى السياقي للسانيات (ويحتمل أنّه كان يقصد باللسانيات ههنا التداوليّة). في الواقع، كان يفترض أن تركّز الجهود على تماهي المعنى رغم اختلاف الأشكال واختلاف المعاني رغم تماهي الأشكال. لكنّ بعض النّظريات ترفض الأولى وبعضها الآخر يرفض الثانية.

يبقى السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام، تمهيدا للسيمياء البديل، وجوابه بديهي: كيف يمكن أن نتصوّر علامة خارجة عن سياقها وهل أنّ ذلك ممكن أصلا دون أن يكون اسقاطا نظريّا لا تطبيق له في الواقع؟

ج. السيمياء البديل: الاندماجيّة وخاصيّاتها:

سنحاول أن نبيّن كيف إنّ تضارب المقاربات السيميائيّة مردّه في الحقيقة الاختلاف حول موضع المعنى في النّظريّات ومن ورائه مقومات السيمياء المعتمدة، قبل طرح السيمياء البديل.

فأين يوجد المعنى؟

1. في العلامات! سيجيب التأويليّون والإسمانيّون، من أمثال بورس ودي سوسير.
2. في رأس المتخاطبين أو طرفي التواصل! سيقول العرفانيّون والذهنيّون.[80]
3. في الكون والأشياء! سيقول بيئيّ، كبوتنام (Putnam).أو سيبوك (Sebeok).[81]
4. في النواة الدلاليّة للعلامة مطعّمة بسياق الاستعمال! سيقول المدافعون عن النّظريّة التداوليّة.
5. في تاريخ استعمال العلامة، سيقول فيتغنشتاين (Wittgenstein)، أو بعبارة أشدّ دقّة في سياقها التّاريخي والثقافي، كما تنادي بذلك السيمياء الإندماجيّة.

76 وقد أدمجت العلامة اللسانيّة في الكلمة اعتباطا، رغم أنّ الكلمة يمكن أن تكون حاملة لعلامات عدّة، حسب النّظريات، بما أنّ العلامة وليدة تأويل نظري وليست موجودة ما قبليّا.

77 يقول راستيي (2001) إنّ من يعتبر أنّ النصّ بأكمله علامة ينفي كل الفوارق بين الدلالة والمعنى ويبسّط تبسيطا مخلاّ مستويات التعقيد الموجودة في النصّ.

78 بنفنسيت، المقال المذكور، ص 64.

79 بينما بعود للميتا-علم الدلالة (méta-sémantique) تحليل النصوص (نفسه، 66).

80 أو من يسمّون بالمثاليين، أي أولئك الذين يطرحون أنّنا لا نرى الواقع إلاّ من خلال اللغة أو هياكل التفكير.

81 يعتبر الواقعيون أن واقع الكون مستقل عن طريقة تمثّلنا له.

تعترض السيمياء الإندماجيّة على الزّعم بأنّ المعنى في العلامة (وفي الألفاظ إذا كانت العلامة لغويّة) بحجّة مضادّة تتمثّل في أنّ الجملة نفسها يمكن أن تكتسب معانيَ متضاربة حسب هويّة المتكلّم، فمن يتلفّظ بـ«أنا على حقّ وأنت مخطئ!» يقول بالضرورة عكس ما يقوله متكلّم ثان، رغم تلفّظه بالمادّة اللغويّة نفسها، أي بـ«أنا على حقّ وأنت مخطئ!».

وهي تعترض أيضا على وجود المعنى في رأس طرفَيْ التواصل بالقول إنّه لو كان الأمر كذلك لتفرّدا به ولاستحال وصول المعنى للعموم. فيكون من قبيل الإحساس، حيث إذا ألقي ماءٌ ساخن على مجموعة من الأشخاص سيشعر كلّ بالألم مفردا ولا يتقاسم الجمع إلاّ الشعور بالشفقة ونوعا من الإسقاط الذاتي على ألم الآخرين.

ولو كان المعنى في الكون، كما تطرح النّظريّة البيئيّة، لكان كلّ شيء علامة ما دام كلّ شيء موجود قبل وعي الإنسان ومقولته للكون ولكانت العلاقة بين العلامة والشيء علاقة طبيعيّة أو على الأقل علاقة ضروريّة.

أمّا عن سياق استعمال الألفاظ، فلا تَرفض هذه النّظريّة إلاّ حدودَ السياق التّي لا يمكن أن تكون مجرّد لحظة الاستعمال الظرفي الحيني أو السياق اللساني، مثلا، بل كامل السياق التّاريخي والثقافي، إذ تعتبر هذه النّظريّة أنّ العلامة لا تكون علامة إلاّ إذا كانت مندمجة في سياقها الثقافي. وهذا هو الطرح الأساسي للسيمياء الاندماجيّة.

يعود الفضل في إرساء قواعد هذه السيمياء غير الكلاسيكيّة إلى الفيلسوف البولندي الأصل ألفريد كهشبسكي (A. Korzybski) الذي أُخْمِد ذكره مدّة طويلة من الزمن (من 1929 إلى 1969) لصعوبة طرحه وجرأته، حتّى أعاده إلى الوجود الفيلسوف الياباني هياكاوا (S.Hayakawa).

ومن أهمّ طروحات هذه السيمياء أن العلامة لا تحمل نواة دلاليّة خارج السياق، ولا سبيل للحديث عن علامة خارج سياق استعمالها وبخاصّة أنّ المعنى موجود في تاريخ استعمال العلامة في سياقاتها.

لهذه الأسباب، كان للمؤشّرات الثقافيّة والمحيط العام للفعل السيميائي (الخطاب أنموذجا) أهميّة كبرى إذ يعطي المحيط الذي تندمج ضمنه العلامة دلالتَها -أو قل أنّها لا تصبح العلامة أصلا إلاّ بموجبه ومن خلاله-، مثلما يعطي القارئ الذي يسقط محيطه الثقافي على النصّ توجّهاته التأويليّة فيكون للنصّ معانيَ (أو تأويلات، إن شئنا) مختلفة حسب السياقات الثقافيّة المحكومة بعاملي المكان والزمان.

من وجهة النّظر هذه، تشترك تعريفات السيمياء، مثل تلك التّي قدّمناها وغيرها مما لا زالت تعترض سبيلنا، بصور ووجوه لا تختلف إلاّ في الطلاء الخارجي، في قيامها على المبادئ نفسها، فتنطلق كلّها من منطلق واحد لكونها تدور في فلك الاستبداليّة-التمثيليّة-الإبلاغيّة.

وخلافا للسيمياء الكلاسيكيّة، تدعو هذه السيمياء لاعتبار الفعل الخاص دالا، بل مفتاحا للنموذج العام وليس العكس، كما هو الشأن في السيمياء الكلاسيكيّة حيث لا تدرك العلامة إلاّ من خلال النّظام.

هل تكون التراجعيّة العامّة من قدر السيمياء؟

هكذا إذًا تبدو السيمياء في حراك دائم. لكن، رغم الوهم بأنّها تتطور وتتوسع فإنّ خطابها يتسم بالتشاؤم والتضارب وأحيانا عدّة بالتناقض، كأن يقول رولان بارط، مثلا، إنّ اللغة هي السيمياء المتضمِّنة، ردّا على ما قاله دي سوسير الذي كان يعتبر أنّ اللغة نظام سيميائي خاص يقع ضمن الأنظمة السيميائيّة، قد يكون الأهم لكنّه مجرد نظام.[82] وفي حين يفتح البعض الحلقة السيميائيّة للكائنات المجهريّة والخلايا، يحصرها الآخرون في الأنظمة السيميائيّة للكائنات الواعية. فلا وجود لنقطة تلاق تجمع كلّ دارسي السيمياء وما يقبل به البعض نظريّة قائمة بذاتها في ميدان معيّن (الطب أو الموسيقى أو التصوير أو المسرح أو تظافر جهود الخلايا، مثلا) لا يفي بالشروط

82 انظر دي سوسير، «**دروس**»، ص 33.

المفهوميّة في نظريّة البعض الآخر.[83]

لذلك، لا يبرر واقع الدراسات السيميائيّة اعتبارها علما إلاّ إذا أعطينا لهذه اللفظة معنى فضفاضا جدّا، حتّى لو جعلناها مما يسمّى العلوم المائعة مقابلة بالعلوم الصلبة، مثل العلوم الإنسانيّة أو الاجتماعيّة في مقابل العلوم الصحيحة. وهذا لا يعود بالأساس إلى الموضوع في حدّ ذاته بقدر ما يعود إلى تضارب المقاربات، وضعف التنسيق بالإضافة إلى التراجعات المتكرّرة. وهو ممّا يجعل من الصعب الحديث عنها في المطلق بسبب اختلاف المصطلحات والمفاهيم وتضاربها من دراسة إلى أخرى ومن باحث إلى آخر. وهو أيضا مما دفع أحد دراسيها أن يقول عنها : «إنّ من يدرس تاريخ تطورها يتبيّن أنّها حلبة صراع».[84] لذلك، إذا كنّا في الميادين الأخرى **نقرأ لنعرف**، توجّب علينا مع السيمياء أن **نعرف لنقرأ**.

IV. **ألا تكون السيمياء في النهاية «إبستيمولوجيا»؟**

«السيميولوجيا علم افتُرض قبل وجودها.»

تودوروف «Perspectives sémiologiques» ص 142

رغم تعريفها الكلاسيكي الشائع بأنّها «علم العلامات»، يحقّ للباحث اليوم، بعد ما حاولنا إثباته من تلاشي الحدود، أن يتساءل إن كانت السيمياء حقّا علما أو إجراءًا أو مجالا تبحث فيه علوم أخرى ؟

إذا كانت علما فهل هي علم كوني وعليه، فهل تخضع ككل علم للفحص الإبستيمولوجي؟ وإذا كانت إجراءا فما الذي يفصلها عن العلم؟ وعندها، هل يمكن فصل مقوّماتها عن النظريّات المختلفة التّي حاولت أن تتمثّلها أم هل إنّ السيمياء تختلف في جوهرها عن (وبالتّالي تتماهى مع) النظريّات التّي تتقمّصها؟ هل سيمياء بورس ودي سوسير وأوغدن وريتشاردس ويالمسلاف وموريس وغرايماس وغيرهم مجرّد تشكّل لأوجه نظر في السيمياء أم هي دليل يوجّه التطبيقات؟ وإذا كان مجالها العلوم، فهل تكون **علم العلوم**؟ وإذا كانت كذلك ألا تكون إبستيميولوجيا العلوم؟ عندها ماذا تكون «إبستيمولوجيا السيمياء» إن لم تكن «إبستيميولوجيا إبستيمولوجيا العلوم» أو بعبارة أخرى «ميتا-إبستيمولوجيا العلوم»؟ وإلاّ فماذا تكون وقد شمل هذا المصطلح ممارسات ومقاربات شتّى؟ وهل بالإمكان التأسيس لسيمياء عامة، غير تلك التّي تعتبر العلامة موضوعا مجرّدا؟

بالفعل، ما معنى «**إبستمولوجيا السيمياء**»؟ وهل هناك مجال لـ«ميتا-سيمياء» ممكنة، إذا كانت السيمياء، كما تعرَّف منذ وقت قصير، باعتبارها علم الدلالات بأنّها : «المنهجيّة التّي تهتمّ بالأنظمة الدلاليّة للعلوم»؟[85] فكيف السبيل إلى إبستمولوجيا السيمياء، إذا كانت تُقارَب باعتبارها نقدا وتحليلا للعلوم، بمعنى أنّها تمثّل إبستمولوجيا المقاربة العلمية، دون الوقوع في حلقة مفرغة أو دون مفارقات؟ وإذا حاولنا تجاوز مثل هذا الطرح لنقول إنّ السيمياء لا ترمي إلى تقعيد منهجيّة العلوم بقدر ما تحاول تشكيل نموذج يمثّل طبيعة العلاقات التّي تحكمها في سياق ثقافي معيّن، فما الذي يميّز السيمياء عن «الإبستمولوجيا الثقافيّة»؟

وإذا اعتمدنا التعريف الكلاسيكي للسيمياء باعتبارها علم العلامات أي العلم الذي يبحث في طبيعة العلامات والقوانين التي تحكمها، فإنّنا نقع في ورطة تعريف «**العلامة**» وخصوصيّة السيمياء إذ تتماهى عندها مع ما يضطلع به «علم الدلالة». فإذا كان لا معنى لعلامة خارج نظام معيّن، بل لا وجود لها أصلا، إذ لا تكون

83 يقول شاندلار في مقدمة كتابه ص xiv: «ثمّة عدم توافق لافت بين المنظرين المعاصرين حول مجال السيمياء ومصطلحاتها الأساسيّة وكذلك آليّاتها المنهجيّة».

84 نفسه، ص 212.

85 انظر «يونيفارساليس»، 1999، مادّة «سيمياء».

العلامة علامة إلاّ إذا وقع تحديدها ولا يكون ذلك إلاّ من خلال عمليّة التأويل. أفلا تتماهى عندها السيمياء مع أيّ نظريّة دلاليّة أو هرمنيطيقيّة؟ وما الذي يبرّر وجودها إذّاك علما مستقلاّ، إلا بشرط تسليمنا بأنّها كذلك لأنّ الأمر محلّ تساؤلات حقيقيّة؟ أليس علم الدلالة جزءا من السّيمياء اللغويّة (على الأقل حسب موريس) لأنّه لا يبحث إلاّ في العلاقة بين مكوّنين؟ وإذا كان كلّ شيء يمثّل علامة كما يرى بارط ألا تكون السيمياء جزءا من علم الدلالة يحمل خصوصيّة خارقة تتمثّل في أنّ هذا الجزء بالذات دون موضوع، إذ لا وجود لعلامة في المطلق؟ بهذا يقوم «علم العلامات» على إجراء ينتج عنه التعرّف على العلامة التّي لا توجد إلاّ بواسطة العمليّة التأويليّة التّي تتماهى والسيمياء في حدود هذا التعريف. وهي عمليّة دائريّة كما نرى! يقول بورس : «لا يكون شيء مّا علامة حتّى يؤوَّل بأنّه علامة».[86] فإذا كان موضوع السيمياء هو التعرّف على العلامات، رغم أنّ هذا الإجراء غير ممكن دون عمليّة مسبقة يقع فيها توطين العلامات في سياقها أي ضمن نظام دلالات، يضمن الإحالة والإفادة والتقابل، الخ، ألا تكون السيمياء عندها علم التأويل الذي يحدد الترابط بين العلامات؟ كما هو الشأن في «السيمياء الدلاليّة» التّي وضعها بارط،[87] فكيف تُعرَّف السيمياء باعتبارها «علم العلامات» حيث لا تكون العلامة علامة إلاّ نتيجة للمنهجيّة السيميائيّة التّي ترى في كلّ شيء علامة بالقوّة أو بالفعل؟ وبعبارة أخرى، ما الذي يسمح بفصل العلامة عمّا ليس علامة؟ أم هل إنّ السيمياء تنظر في العلامة من مصادرة تطرح أنّ تأويلها في ذاتها، فتكون الممثّل [representamen] والمؤوّل [interpretant] في آن؟ وأين ذلك من المستعمل العادي الذي يقرن بطريقة عفويّة بديهيّة بين التمثيل والدلالة؟ ألا يعود هذا للاعتقاد السائد بأنّ للعلامة القدرة على تمثيل الغائب؟

لقد حاولنا مقابلة القواسم المشتركة في هذه السيمياء التّي تعوّدنا على التعامل معها وبها إلى درجة أنّنا صرنا نعتبرها حقيقة وواقعا أوحدا، نستعمل لفظة «السيمياء» بأدوات التعريف، فنخلط بين النّظريّة وموضوع النّظريّة، كما حاولنا تبيين ذلك منذ البداية. وقد قابلنا السيمياء الكلاسيكيّة بـ«**السيمياء الإندماجيّة**» التّي يتبنّاها ما يسمّى بـ«علم الدلالة العام»(General semantics). ومن خصوصيّاتها أنّها تتضارب والسيمياء الكلاسيكيّة. وهي تنكر الصفة التأثيريّة-الإبلاغيّة للعلامة وتنكر الوظيفة التمثيليّة، الاستبداليّة (وهي تنكر بالتالي حتّى التقاطع بين النسق والاستبدال). ولا تَعتبر العلامة من منظور عام -حاملة لنواة دلاليّة ما قبليّة- بل منحصرة في الاستعمال الخاص الذي لا يمكن فصله عن سياقه وتجريده في عمليّة ذهنيّة تسبق الاستعمال. وهو ما يذكّرنا بما كان يذهب إليه يوري لوتمان في نطاق النظريّة الكلاسيكيّة وبما يعنيه بـ«الدائرة السيميائيّة» في معناها الفضفاض. وهكذا، سيكون من الضروري استعمال «سيمياء» بصيغة النكرة أو التركيب الإضافي للحديث عن السيمياء الكلاسيكيّة مقابل السيمياء الإندماجيّة، الخ.

ما يبقى في المحصلة يختزل في هذا المبدإ: «**لا علم بدون إجراءات بت**»!

86 نذكّر بنصّه: «Nothing is sign unless it is interpreted as a sign.»

87 في مقابل «السيمياء الإبلاغيّة» التّي وضعها بورس وبلورها بويسانس.

بيبليوغرافيا:

بن گراد (سعيد)، **مدخل إلى السيميائيات السردية**، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش. 1999.

بن مالك (رشيد)، **السيميائيات السردية**. دار مجدلاوي للنشر. عمّان. 2006.

بن مالك (رشيد)، **قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، عربي، إنجليزي، فرنسي**، دار الحكمة، الجزائر، 2000.

بنور (عبد الرزاق)، «سيمياء أعضاء الجسم وموقع الآخر من جغرافيا الجسد»، فعاليات الملتقى الدولي حول «تمثيل الآخر» الذي نظّمه **المعهد العالي للغات بتونس**، سيصدر قريبا.

بنور (عبد الرزاق)، **الكتابة في المتوسط**. دار زرياب للنشر. الجزائر. 2004.

بنور (عبد الرزاق)، **جدل حول الخطابة والحجاج**. الدار العربيّة للكتاب. تونس-ليبيا. 2008

بنور (عبد الرزاق)، «أبجديات البلاغة الشعبيّة (استغلال الرأسمال الرمزي في ترجمة الخطاب الإشهاري)»، مجلة **المترجم** عدد 17، 2009.

العجيمي (محمد النّاصر)، «موقع السيميائيّات من مناهج البحث الحديث»، مجلّة **سيميائيات**، عدد 2. وهران. الجزائر، 2006. صص 23-30.

فيتغنشتاين (لودفيك)، **تحقيقات فلسفيّة** (ترجمة وتقديم وتعليق: عبد الرزاق بنور). المؤسسة العربية للترجمة. بيروت. 2007.

مرتاض (عبد الملك)، «مفاهيم سيميائيّة بمصطلحات بلاغيّة»، مجلّة **سيميائيات**، عدد 2. وهران. الجزائر، 2006. صص 3-22.

يوسف (أحمد)، **الدلالات المفتوحة؛ مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة**. الدار العربية للعلوم-ناشرون، منشورات الاختلاف 2005.

يوسف (أحمد)، «السيميائيات ومرتكزاتها الإبستيمولوجيّة»، مجلّة **سيميائيات**، عدد 2. وهران. الجزائر، 2006. صص 31-42.

ARCAINI (Enrico), *Principi di linguistica applicata*. Il Mulino. Bolongna. 1967.

BARTHES (Roland), *L'aventure sémiologique*, Paris, Seuil, 1985.

BARTHES (Roland), *Mythologies*. Seuil. Paris. 1957.

BENVENISTE (Émile), «Sémiologie de la langue» [in *Semiotica*, 1969], reproduit in *Problèmes de linguistique générale*. Gallimard. Paris, 1974, pp. 43-66.

BÜHLER (Karl), *Sprachtheorie. Die Darstellungsfunktion der Sprache*. Iena. 1934. [Trad. fr. *Théorie du langage. La fonction représentationnelle*. par Janette Friedrich et Didier Samain, Agone, 2009.

BUSSE (Winfried) & TRABANT (Jürgen) (Edited by) *Les Idéologues. Sémiotique, philosophie du langage et linguistique pendant la Révolution française*. John Benjamins Publishing Company. Amsterdam. 1986.

BUYSSENS (Éric), *La Communication et l'articulation linguistique*. Presses Universitaires de Bruxelles. 1967.

CASSIRER (Ernst), *Philosophie des formes symboliques*. Minuit. Paris. (3 vol.)1972-1975.

CHANDLER (Daniel), *Semiotics. The Basics*. Routledge. London. 2002.

COBLEY (Paul), (edited by). *The Routledg Companion to Semiotics and Linguistics*. Routledge. London. 2001.

DERRIDA (Jacques), *L'écriture et la différence*. Seuil. Paris. 1967.

DERRIDA (Jacques), *De la grammatologie*. Minuit. Paris. 1967.

ECO (Umberto), *Segno*. Istituto Editoriale Internazionale. Milano. 1973. [Trad. *Le signe. Histoire et analyse d'un concept*. Bruxelles, Labor, 1988].

ECO (Umberto), *Semiotica e filosofia del linguaggio*. Torino. Einaudi. 1984.

ECO (Umberto), *A Theory of Semiotics*. Indiana University Press. Bloomington/ London. 1976.

ESCHBACH (Achim), «Notes sur la *Note sur l'influence des signes* de Maine de Biran», in Busse & Trabant (eds), 1986. pp. 59-72.

FONTANILLE (Jacques), *Pratique sémiotique*. PUF. Paris. 2008.

GREIMAS (Algirdas Julien), *Maupassant - La sémiotique du texte*. Seuil. Paris. 1991.

GREIMAS (A. J.), & FONTANILLE (J.), *Sémiotique des passions*. Seuil. Paris. 1991.

GREIMAS (A. J.), *Du sens II*. Seuil. Paris. 1983.

GREIMAS (A. J.), *Du sens*. Seuil. Paris. 1970.

GREIMAS (A. J.) & COURTÈS (Joseph), *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*. Hachette. Paris. 1986.

GRUAZ (Claude), *Aspects du mot français*. L'Harmattan. Paris. 2005.

HARRIS (Roy), *Signs of Writing*. Routledge. London. 1995.

HÉNAULT (Anne), *Les enjeux de la sémiotique*. 1. Introduction à la sémiotique générale. P.U.F. Paris, 1979. 2.Narratologie, sémiotique générale. P.U.F. Paris,1983.

HÉNAULT (Anne), *Histoire de la sémiotique.* PUF. Paris. 1992 [2ème édition 1997].

HJELMSLEV (Louis): *Essais linguistiques*. Minuit. Paris. 1971.

HJELMSLEV (L.): *Le langage*. Minuit. Paris. 1966.

HJELMSLEV (L.): *Prolégomènes à une théorie du langage*. Minuit. Paris. 1968-1971.

KALINOWSKI (Georges), *Sémiotique et philosophie*. Had&egraves-Benjamins. Paris-Amsterdam. 1985.

KLINKENBERG (Jean-Marie), *Précis de sémiotique générale*. Le Seuil. Paris. 2000.

KRESS (Gunther), «Sociolinguistics and social semiotics», in *Cobley (edt)*. 2001, pp. 66-82.

KRISTEVA (Julia), *Semeiotike. Recherche pour une semanalyse*. Seuil. Paris. 1978.

LISZKA (James Jakób), *A General Introduction to the Semiotic of Charles Sanders Peirce*. Indiana University Press. Bloomington. 1996.

LOCKE (John), *Essai philosophique concernant l'entendement humain*. Paris. 1787.

LOTMAN (Iouri), «On the semiosphere», in *Sign Systems Studies, n°*33, vol. 1, 2005, pp. 205-229.

MARTY, (C. & R.), *99 réponses sur la sémiotique*. CRDP. Montpellier. 1992.

MERRELL (Floyd), «Charles Sanders Peirce's concept of the sign», in *Cobley (edt)*. 2001, pp. 28-39.

MOUNIN (Georges), *Introduction à la sémiologie*. Minuit. Paris. 1970.

NATTIEZ (Jean-Jacques), «Pour une définition de la sémiologie», in *Langages,* n°35, vol. 8, 1974, pp. 3-14.

OGDEN (Charles Kay) & RICHARDS (Ivor Armstrong), *The Meaning of Meaning. (A Study of the Influence of Language upon Thought and of the Science of Symbolism)*. Routledge & Kegan Paul. Broadway. 1923

PEIRCE (Charles Sanders), *Collected papers*. Harvard University Press. (6 vol.). 1952.

PEIRCE (Ch. S.), *Écrits sur le signe*. Seuil. Paris. 1978

RASTIER : «Les fondations de la sémiotique et le problème du texte. Questions sur *les prolégomènes à une théorie du lanagage* de Louis Hjelmslev», in Zinna, A. (édt.), *Hjelmslev aujourd'hui*, Brepols, Turnhout, 1997, p. 141-164.

RASTIER : «Sémiotique et sciences de la culture», in *Linx*, n°44-45, 2001, pp. 149-168.

SAUSSURE (Ferdinand de), *Cours de linguistique générale*. Payot. Paris. [2001].

SAUSSURE (Ferdinand de), *Écrits de linguistique générale*. Gallimard. Paris. 2003.

SEBEOK (Thomas), «Nonverbal communication», in *Cobley (edt)*. 2001, pp. 14-27.

SEBEOK, Thomas A. (éd.), 1994, *Encyclopedic Dictionary of Semiotics*. Mouton, De Gruyter. 1986.

TRAINI (Stefano), *Le due vie della semiotica Teorie strutturali e interpretative.* Bompiani. Roma. 2005.

TREMBLAY (Robert),«Analyse critique de quelques modèles sémiotiques de l'idéologie», in *Philosophiques*, vol. 17, n°1, 1990, pp. 71-112.

ULLMANN (Stephen), *Semantics. An Introduction to the Science of Meaning*. Basil Blackwell. Oxford.1962.

ZILBERBERG (C.), *Sémiotique, épistémologie et négativité*. Université de Limoges.1997.